جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بدسوق

مجلة الدراية
https://drya.journals.ekb.eg
drya.journal@gmail.com

مجلة الدراية
مجلة علمية محكمة نصف سنوية

(من بلاغة البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير في أحاديث خير الأنام (ﷺ))

إعداد الباحثة

أسماء عبدالعال محمد عبدالعال

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقرين

من بلاغة البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير فى أحاديث خير الأنام (ص)

أسماء عبدالعال محمد عبدالعال
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بالقرين شرقية، مصر، جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني : asmaaabdelaal.2075@azhar.edu.eg

الملخص:

تقوم فكرة البحث المعنون بـ (من بلاغة البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير فى أحاديث خير الأنام(ﷺ)) على دراسة بعض الأحاديث النبوية التى تشتمل على أساليب الإبهام ، والتى هى غير صريحة في التعبير عن معانيها ، وغير متبوعة بتفسير يوضحها ، وبيان أن إبهامها وعدم تفسيرها هو عين البيان والوفاء بالمعنى ، وبيان كيف كانت هذه الأساليب مع إبهامها قمة البلاغة؟ حيث دفعت السامع للتفكر والتدبر، وإدمان النظر والتمعن ، ومن أسباب اختيار هذا الموضوع: دقة وخفاء الموضوع وطرافته ، وكيف يتأتى البيان من الابهام؟ ، ومعرفة السر البلاغي للإبهام فى الصور التى يرد عليها فى الحديث الشريف ، هذا وقد جاء البحث فى مقدمة ، وتمهيد ، وسبعة مباحث، وخاتمة ، وفهرس للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات ، فالمبحث الأول: البيان بالإبهام عن طريق التنكير، والمبحث الثاني: البيان بالإبهام عن طريق الموصولية، والمبحث الثالث: البيان بالإبهام عن طريق الحذف ، والمبحث الرابع: البيان بالإبهام عن طريق اتحاد طرفي الجملة الشرطية ، والمبحث الخامس: البيان بالإبهام عن طريق الكناية ، والمبحث السادس:البيان بالإبهام عن طريق المجاز، والمبحث السابع: البيان بالإبهام عن طريق التشبيه الوهمي، وكان المنهج المتبع في البحث هو(الاستقرائي التحليلي) حيث قمت بجمع الأحاديث التى تشتمل على أساليب الإبهام ثم دراسة وتحليل موضع الإبهام فيها ، وكيف كان هو عين البيان ، وكان من أهم نتائج هذه الدراسة : أنه لكل صورة من صور الإبهام البلاغي في الحديث الشريف بلاغتها ومذاقها الخاص التي تحمل في ثناياها ما لا يحمله التصريح ، كما يعد الإبهام البلاغي هو أحد طاقات الحديث الشريف وسر من أسرار بلاغته .

الكلمات المفتاحية : بلاغة ، البيان ، الإبهام ، غير المتبوع ، التفسير .

From the rhetoric of unexplained thumbs in the talk of the best of human beings

Asma Abdelaal Mohammed Abdelaal
The department of rhetoric and criticism, the Faculty of Islamic and Arab Studies, daughters of the East Quran, Egypt, Al-Azhar University.
E-mail: : asmaaabdelaal.2075@azhar.edu.eg

Abstract:
The idea of the entitled research (From his eloquence is a vague statement not followed by an explanation in the hadiths of the best of human beings. (Peace Be Upon Him) to study some of the Prophet's hadiths that contain vague methods that are not explicit in expressing their meanings and are not followed by a clear interpretation. Which explains that her thumb and lack of explanation is the eye of the statement and the fulfillment of the meaning. Where it prompted the listener to think, consider, and consider. Among the reasons for choosing this topic are accuracy, concealment of the topic, its humor, and how the statement comes from ambiguity and knowledge of the rhetorical secret of ambiguity in the pictures that are included in the humorful hadith. It included a preface, seven investigators, a seal, an index of sources and references, and an index of subjects, The first subject: Thumb statement by means of masquerade, Second subject: Thumb statement by communicating, Third subject matter: Thumb statement by deletion, Fourth subject matter: Thumb statement by union of two parties of conditionals, Fifth subject matter: Thumb statement by means of epithet, Sixth subject matter: Thumb statement by metaphor, Seventh subject matter: Thumb statement by means of phantom analogy, And the approach to research was by analytic induction, where I collected conversations involving the thumb methods and then studied and analyzed where the thumb was and what the eye of the statement was. The most important result of this study was that every form of rhetorical thumb in an honourful hadith has its own dialect and taste, which carries within it what is not permissible. The rhetorical thumb is an energy of honourful hadith and a secret of its rhetoric.

Keywords, Statement, Thumb, Followed by interpretation.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الهادي المعين ، خالق الإنسان، معلمه البيان، والصلاة والسلام على النبي العدنان خير من نطق فأبان ، وأزال لنا كل إبهام ، وعلى آله وأصحابه الأطهار، ومن تبعهم بإحسان.

وبعد، .....

لم تقتصر أساليب العربية على التعبير عن المعاني المرادة بالتصريح باعتبارها أقرب الطرق للإفهام ، ولكن قد يقتضى المقام أن يأتي المعنى المقصود مبهماً فيفيد الكلام بلاغة، ويكسبه إعجاباً وفخامة، ويذهب السامع في إبهامه كل مذهب ، وتدفعه للتفكر والتدبر، وإدمان النظر والتمعن ، فتكون(وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبن)[1] والأساليب العربية والتراكيب المبهمة التي يتولد منها بيان وبلاغة كثيرة ومتعددة ، ولاسيما فى الأحاديث النبوية المطهرة ، فبلاغة النبي(ﷺ) تتربع على قمة البيان البشرى، فسمات الأسلوب فيه وخصائصه يرتفعان إلى ذروة البيان ، والوصف فيه يعلو إلى آفاق الجمال ، ولا عجب فى ذلك فقد علمه ربه ، فقال تعالى:﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾[2]، ولقد عبر نبي الأمة(ﷺ) عن هذه المنحة الإلهية بقوله(ﷺ): «أعطيت جوامع الكلم»[3]

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني(١/ ١٤٦) تحقيق: الشيخ : محمود محمد شاكر، مطبعة: المدنى القاهرة ، دار المدنى بجدة ، ط٣ ،١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) سورة النساء: من الآية(١١٣).

(٣) أخرجه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، في صحيحه، كتاب/ المساجد ، ومواضع الصلاة، باب/ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، حديث رقم(٥٢٣)،(١/٣٧١)، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي/ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

وهذه محاولة من الباحثة لتعيش بين يدي السنة النبوية المطهرة ، طلباً للأجر والثواب ، ورغبة في إبراز بلاغته(ﷺ)وهى أعلى طبقات البلاغة الإنسانية التى قلت حروفها وكثرت معانيها ، وخاصة هذه النماذج تحمل في طياتها الكثير من المعاني التي تؤثر في قارئها على الرغم من لفظها المبهم ، فكان البحث بعنوان:

(من بلاغة البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير فى أحاديث خير الأنام(ﷺ)

ويمكن تلخيص الأسباب التى دفعتنى نحو هذا البحث فى التالى:

١- دقة الموضوع وطرافته وخفاؤه ، وكيف يتأتى البيان من الابهام ؟ وقلة تعرض الباحثين له.

٢- التعرف على السر البلاغي للإبهام فى الصور التى يرد عليها فى الحديث الشريف.

٣- شرف مادته حيث إنه يبحث فى الحديث الشريف وما يتميز به أسلوبه من قوة التأثير وإعمال العقل، والقدرة على المعالجة في شتى الموضوعات مما جعله يتربع على قمة الأساليب البشرية.

منهج البحث:

وكان المنهج المتبع في البحث هو الجمع بين المنهجين (الاستقرائي والتحليلي) حيث قمت بجمع الأحاديث التي تشتمل على أساليب الإبهام ثم دراسة وتحليل موضع الإبهام فيها وكيف كان هو عين البيان وغاية الإفهام؟.

الدراسات السابقة:

أما عن الدراسات السابقة فقد قامت الباحثة بالبحث والتنقيب وسؤال المتخصصين ، فلم تجد دراسة تعرضت لمثل هذا الموضوع مستقلاً ، ولكنه متناثر في بطون كتب البلاغة في أبواب متعددة ، إلا بحثاً بعنوان(البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير طرقه وبلاغته) اعداد/ الدكتور لطفي خالد الجوهري ، تم نشره في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ، المجلد الثاني من العدد الثلاثون عام٢٠١٤م ، وقد تناول الباحث في هذا البحث الإبهام كأسلوب بلاغي له دور في بيان المعاني مستشهداً له من القرآن الكريم والشعر ، فأحببت أن أكمل الصورة ببيان بلاغة الإبهام في كلام خير الأنام (ﷺ).

هذا وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، وسبعة مباحث، وخاتمة وثبت للمصادر و المراجع .

أما المقدمة فقد اشتملت على أسباب اختيار هذا البحث ، والمنهج المتبع فيه، والدراسات السابقة، والخطة التي أعدت لإنجازه.

والتمهيد اشتمل على تعريف الإبهام البلاغي، وبيان أقسامه، وبلاغته، والفرق بينه وبين التعمية وبيان طرقه، وحديث البلاغيين عنه.

ثم تناولت المباحث التي يأتي فيها بعض صور البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير في السنة النبوية المطهرة، وكانت في سبعة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: البيان بالإبهام عن طريق التنكير.

المبحث الثاني: البيان بالإبهام عن طريق الموصولية.

المبحث الثالث: البيان بالإبهام عن طريق الحذف.

المبحث الرابع: البيان بالإبهام عن طريق اتحاد طرفي الجملة الشرطية.

المبحث الخامس: البيان بالإبهام عن طريق الكناية.

المبحث السادس: البيان بالإبهام عن طريق المجاز.

المبحث السابع:البيان بالإبهام عن طريق التشبيه الوهمي.

ثم كانت الخاتمة وتمثلت في حصاد يعرض أهم النتائج والتوصيات.

و ختمت بالفهارس وتمثلت في:

١- ثبت للمصادر والمراجع.

٢- فهرس للموضوعات.

وبعد ، فهذا، جهد المقل للمساهمة في إظهار جانب من بلاغته (ﷺ) فإن أخطأت فمن تقصيري وقلة علمي ومن الشيطان والله ورسوله بريئان من ذلك ، وإن أصبت فما توفيقي إلا بالله ، والله أدعو أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

عند حديث العلماء عن البلاغة انتهوا إلى أنها سميت بذلك لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ، وعلى هذا تكون عملية الاتصال قد قامت على ثلاثة أركان هي :المتكلم ، والمخاطب، والرسالة التي يُراد توصيلها للمخاطب ، ولابد أن تكون هذه الرسالة يصحبها اختيار مناسب للتأثير في المخاطب حتى تتمكن في نفسه فضل تمكن ، وفى صورة مقبولة ومعرض حسن، وهذا هو المراد بقولهم في وضع حدها بأنها : مراعاة الكلام لمقتضى الحال ، وعلى هذا فمراعاة حال المخاطبين تقتضى أن لكل مقام مقالاً ، لذا فحاجة المتكلم أو البليغ إلى البيان في مقام يتطلبه مثل حاجته للإبهام والغموض في مقامه، وعلى هذا لا نستطيع القول بأن المرمى من البلاغة هو الوضوح والبيان فقط ، وأن الإبهام هو إخلال بالفصاحة والبلاغة ، فالبلاغة قسيمة بين البيان والإبهام كل في مقامه، ومثال على هذا هناك مواقف تتطلب الوضوح دون إلباس ولا إبهام ؛ لأن مقامها يتطلب هذا، ويترتب على إبهامهما ظلم وجور مثل الشهادة بالمحكمة ، كما أن مقام الحديث عن العلاقة بين الرجل وزوجته يتطلب الستر والحياء وعدم التصريح ، فيكون الحديث عنه بالكناية وعدم التصريح .

أولاً- تعريف الإبهام البلاغي:

وقد جاءت مادة (الإبهام) تدور حول الغموض وعدم الوضوح ، وطريق مبهم إذا كان خفيا لا يستبين، واستبهم عليه الأمر أي استغلق، وإبهام الأمر: أن يشتبه فلا يعرف وجهه.

والمسألة المعضلة أي مسألة معضلة مشكلة شاقة، وسميت مبهمة ؛ لأنها أبهمت عن البيان فلم يجعل عليها دليل.[١]

ومن هنا يمكن تعريف الإبهام بأنه: استخدام الكلمات والتعبيرات بطريقة تجعل السامع يدرك المعنى بطريق غير مباشر، بعد إعمال ذهن وتفكر وتدبر لاستخراج تلك المعاني المرادة .

ثانياً- أقسامه، يأتي الإبهام على قسمين:

القسم الأول: إبهام متبوع بالتفسير، وهو الذى أبهم أولاً ، فأثار في النفس تشوقاً ورغبة فى معرفة المبهم ، ثم أتبع بتفسير يوضحه ، ومن ذلك قول الله تعالى:(وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)[٢]

فقوله: ذلِكَ الْأَمْرَ مبهم، وقد فسره بقوله: أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ ، وفى إبهامه أولاً، ثم تفسيره ثانياً تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه، ولو قال من أول وهلة: وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع، لم يكن فيه معنى التفخيم [٣].

ومنه ما رواه أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ(ﷺ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ):«يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ المَالِ، وَطُولُ العُمُر»[٤] فنرى أن لفظ (اثْنَانِ) إبهام أثار في النفس التشوق لمعرفة هذين الأمرين فجاء(حُبُّ المَالِ، وَطُولُ العُمُر) يفسره.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، ط٣ - ١٤١٤هـ، دار صادر- بيروت، مادة (بهم).

(٢) سورة الحجر: آية (٦٦).

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوي اليمني ، دار الكتب العلمية ، بيروت (٢/ ٤٧).

(٤) أخرجه محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، فى صحيحه، كتاب/ الرقاق ، باب/ مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي العُمُرِ، حديث رقم(٦٤٢١)، (٨/ ٩٠) تحقيق/محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ، ط١، ١٤٢٢هـ.

ومن العلماء الذين قسموا هذا التقسيم ابن الأثير في كتابه المثل السائر، والعلوى في الطراز .

والقسم الثاني: الإبهام غير المتبوع بالتفسير، وهو محل البحث ، وهو الذى يأتي مبهماً ولا يتبعه تفسير يوضحه ، فيظهر مظهر الغموض ، ولكنه يكون غاية البيان، وهذا النوع من الإبهام يدعو العقل للتفكر ، والتنقيب عن المعنى المراد ، فيكسب المعنى فخامة ويفيده بلاغة، ويكسبه إعجاباً، ومن هذا القسم ما جاء في القرآن الكريم من قول فرعون في قصة سيدنا موسى (عليه السلام) قوله تعالى:(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ)[1]، فلم يذكر الفعلة بعينها مع كونها معلومة لما في ذلك من المبالغة في أمرها وتعظيم شأنها، كأنه قال: تلك الفعلة التي عظم أمرها، وارتفع شأنها[2]، ولا نجد البلاغة كما هي في هذا اللفظ عند التصريح ، فالوهم مع الإبهام قد ذهبت فيه النفس كل مذهب ودعت العقل لتخيل احتمالات كثيرة .

والباحثة خصت البحث بالإبهام غير المتبوع بالتفسير لما فيه من التشوق وإعمال العقل ودقائق البلاغة التي تظهر بكشف اللثام عن طرقه ودلالاته، التي لو عرفت أسباب الإبهام فيها كان غاية البيان، وخاصة لو كانت في كلام خير الخلق(ﷺ) وهو المعلم الأعظم الذى توفرت له أسباب البلاغة التي لم تتوفر لغيره ، وقد حباه الله بمكاشفة أسرار اللغة وكشف بواطن من يخاطبهم ، فكان لفظه المبهم غاية البيان وقمة الإفهام ، كما أنه من بلاغة الإبهام في الحديث النبوي، ومن بلاغة ألفاظه(ﷺ) أنها لا تختص بأشخاص معينين وإن خوطب فيها شخص بعينه ، فإن الحديث هو للمسلمين كافة ،

(١) سورة الشعراء: آية (١٩).

(٢) الطراز(٢/ ٤٤).

كما أن فيه بياناً لمعاني التفخيم والتعظيم أو التحقير، أو الستر ومراعاة الحالة النفسية للمخاطب وعدم التشهير به في مواقف العتاب فكان(ﷺ) معلماً ورحيماً وبليغاً.

ثالثاً: بلاغته

وكما علمنا من التعريف أن الإبهام يعرض المعنى في ثوب من الغموض وعدم الوضوح وهنا تكمن بلاغته ، فيعمل ذلك على تنشيط خيال المتلقي ، وتستخدم مفردات اللغة بشكل مقنع ومؤثر للسامع ، فيتحفز السامع لتصور الأفكار والمعاني الخفية مما يدعوه للانتباه وقدح ذهنه ، وتوسيع آفاقه الفكرية ، ومداركه كما تدعوه للتفاعل مع النص مما يزيد المعنى عمقاً وبلاغة.

وقد أشار صاحب الطراز إلى بلاغته من خلال قوله:(الإبهام أولا يوقع السامع في حيرة وتفكّر واستعظام، لما قرع سمعه فلا تزال نفسه تنزع إليه وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنه حقيقته) [(١)] وعند الإبهام يكون للأفئدة تطلع إلى إيضاح المبهم وشغف إلى بيانه، ومعلوم أن الشيء إذا جاء بعد تشوق كان أعظم في النفس وأرسخ في الذهن .

رابعاً: الفرق بين الإبهام والتعمية

وهناك فرق بين الإبهام البلاغي والتعمية التي ينشأ عنها الغموض، والمعمى هو: المغطى، والْعَمى هُوَ تَغْطِيَة الْبَصَر عَن إِدْرَاك الْمَعْقُول، وكل شَيْء تغطى عَنْك فَهُوَ عمى عَلَيْك، وتلبس عليك فهم ما تريد.[(٢)]

وعلى هذا فالتعمية :الإخفاء والتلبيس وهى قول يدل ظاهرة على خلاف المراد ، ولذا فهي تؤدى إلى صعوبة في فهم المراد ، ويجنح فيها إلى

(١) الطراز (٢/ ٤٤).

(٢) اللسان: مادة (عمى).

الرمز والإيماء[1]، وعلى هذا الإبهام الحاصل من التعمية، وهو الإبهام غير البلاغي مذموم ويتنافى مع ما تقتضيه البلاغة من وضوح الدلالة فهو ناشئ عن التعقيد ويؤدى إلى استغلاق المعنى لدى المتلقي، وتصبح العملية الإبداعية غير مكتملة الأركان .

ولكن الإبهام البلاغي يتطلبه المعنى للوفاء به ويكون الإبهام هو عين البيان ، وهو يعطى للمتكلم مساحة لكي يعبر عمَّا بداخله وليخرج كل مكنون صدره بطرائق من التعبير متعددة يكون التصريح فيها غير وافٍ بحق المعنى ، والخفاء والستر قد يكون حسنةً من حسنات الكلام[2]، ويدعو السامع لإعمال العقل والتفاعل مع مخاطبه ، ويتشوق لما يريد معرفته فإذا أدرك المراد وقع في نفسه موقع القبول ، ووسع آفاقه ، وتتعدد الأغراض البلاغية التي يأتي من أجلها الإبهام البلاغي من إفادة معانى التعظيم أو التحقير، أو الكثرة أو القلة ، والترغيب والترهيب، أو عدم التصريح باللفظ الفاحش ، وعدم التشهير بالمخاطب ، وغيرها كثيرٌ من الأغراض التي يتطلبها المقام ويرمى إليها المتكلم.

وعلى هذا فهناك فرق بين الإبهام البلاغي وبين الإبهام الذى ينشأ عنه ضرب من الألغاز والتعمية على القارئ فلا يستطيع الوقوف على

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجى، ط٢، دار الجيل ، بيروت(٣١/١)، ويراجع: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي ، ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٤، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، مكتبة الخانجي، القاهرة (٦/ ٤٦٠)، ويراجع: تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي الناشر: دار الكتاب العربي ، (٣/ ٢٧١) بتصرف.

(٢) بحث بعنوان (البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير طرقه وبلاغته) اعداد/ الدكتور لطفي خالد الجوهري ، تم نشره في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ، المجلد الثاني من العدد الثلاثون ،٢٠١٤م، ص(٧).

المعنى إلا بالتوهم والمكابدة والعناء الذي يستنفذ طاقته في الظن والتخمين قبل أن يصل إلى غايته من الإفادة والتأثر والاستمتاع [١].

والطرق التي يأتي عليها الإبهام البلاغي عند علماء البلاغة كثيرة يذكر البحث منها :

١- الحذف : وقد ذكره أبو هلال العسكري تحت باب الإشارة، ولم يصرح بأنه من الإبهام البلاغي، وذكر شاهده حذف جواب الشرط ، فقال: (لو رأيت علياً بين الصفين) فيه حذف وإشارة إلى معان كثيرة [٢]، ولكن ابن الأثير ذكره ووضعه تحت باب الإبهام غير المتبوع بالتفسير، فقال:(لو رأيت علياً بين الصفين) فإنه لو وصفه مهما وصف من نجدة وشجاعة وثباتٍ وإقدام وأطال القول في ذلك لم يكن بمثابة ما يترامى إليه الوهم مع الإبهام[٣] ، ثم جاء العلوى ومثل للإبهام بطريق الحذف بقوله : (ومنه قولهم : بعد اللتيا والتي ، فإن هذا واقع في الإبهام أعظم موقع ، وما حذفوا الصلة إلا من أجل إرادة الإبهام ، لأن الصلة موضحة للموصول في علم الإعراب)[٤].

٢- الاسم الموصول، أشار إليه العسكري(ت، ٣٩٥هـ) وجعله تحت باب الإشارة ، وهى أن يكون اللفظ القليل مشارا به إلى معان كثيرة، بإيماء

(١) قضايا النقد الأدبي، د/ بدوي طبانة، معهد البحوث والدراسات العليا بجامعة الدول العربية المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧١م، ص(١٥٣).

(٢) الصناعتين لأبى هلال الحسن العسكري ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العنصرية – بيروت- ١٤١٩ هـ، ص:(٣٤٨).

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة(١٦٣/٢).

(٤) الطراز (٤٧/٢) .

إليها ولمحة تدل عليها[١]، واستشهد عليه بقول الله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[٢] وأشار إليه ابن رشيق ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[٣] وجعله تحت باب الإيماء[٤] ، ثم جاء العلوى مستشهداً عليه بقول الله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾[٥]، أى ألق هذا الأمر الهائل الذى فى يمينك، فإنه يبطل ما أتوا به من سحرهم العظيم.[٦]

٣- التنكير ومن العلماء الذين تعرضوا له في كتبهم كوسيلة من وسائل الإبهام البلاغي العلوى ، واستشهد عليه بقوله(ﷺ): «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا الْعَطَاءَ مَا كَانَ عَطَاءً، فَإِذَا تَجَاحَفَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْمُلْكِ وَكَانَ عَنْ دِينِ أَحَدِكُمْ فَدَعُوهُ»[٧] فالإبهام هو قوله: «ما كان عطاء» لاشتماله على مقاصد عظيمة[٨] .

٤- البيان بالإبهام عن طريق الكناية ، وذكر ابن رشيق الكناية في كتابه

---

(١) الصناعتين لأبى هلال الحسن العسكري، ص: (٣٤٨)، تحقيق: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العنصرية – بيروت- ١٤١٩ هـ.

(٢) سورة النجم: الآية: (١٦).

(٣) سورة القارعة : اية(١-٢).

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل ، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م(٣٠٣/١).

(٥) سورة طه : جزء من الآية(٦٩).

(٦) الطراز(٢/ ٤٥).

(٧) أخرجه أبو داود الإمام الحافظ أبي داود سليمان الأزدي في سننه ، كتاب/ الخراج ، باب/ كراهية الاقتراض في آخر الزمان ، حديث رقم (٢٩٥٨) ،(٣ / ١٣٨) تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت.

(٨) الطراز(٢/ ٤٦).

ومثل لها من خلال الاستشهاد لنوع منها وهو التعريض : كقول كعب بن زهير لرسول الله (ﷺ):

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

فعرَّض بعمر بن الخطاب(ﷺ) وقيل: بأبي بكر الصديق(ﷺ) وقيل: برسول الله(ﷺ) تعريض مدح.[١]

٥- البيان بالإبهام عن طريق اتحاد طرفي الجملة الشرطية: (الشرط والجواب) وقد تعرض له السيوطي فى كتابه همع الهوامع[٢].

٦- ومنها الإبهام عن طريق التشبيه الوهمي ، وقد تعرض له الجاحظ فى كتابه الحيوان كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهّمه، ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق، أو خبر صادق. ومخرج الكلام يدلّ على التخويف بتلك الصّورة، والتفزيع منها [٣]، وقد تعرض له ابن رشيق فى كتابه العمدة تحت باب التشبيه[٤].

٧- ومنها الإبهام عن طريق المجاز وقد جاء الحديث عنه متناثر فى كتب البلاغيين، وسيأتى الحديث عنه فى موضعه فى البحث إن شاء الله تعالى.

---

(١) العمدة (٣٠٤/١).

(٢) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، لعبد الرحمن، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية – مصر.

(٣) الحيوان ، لعمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٢، ١٤٢٤ هـ، (٦/ ٤٢٥).

(٤) العمدة (٢٨٨/١)

المبحث الأول

البيان بالإبهام عن طريق التنكير

النكرة هي: ما دلت على شيء لا بعينه[١]، والنكرة فيها نوع من الإبهام ، وإذا وردت في الكلام فإنها تزيده بلاغة، وتكسبه إعجابا وفخامة ؛ وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام، فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب، ويقول الزملكاني:(قد يظن ظان أن المعرفة أجلى فهي من النكرة أولى ، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق ، وأن سلوك الإيضاح ليس بسلوك الطريق خصوصاً في موارد الوعد والوعيد ، والمدح والذم ، وعلة ذلك أن مطامح الفكر متعددة المصادر بتعدد الموارد، ويحصل في النفس لها فخامة ، وتكتسي منها وسامة ، وهذا فيما ليس لمفرده مقدار محصور....) [٢]، والسياق له دور فاعل في الكشف عن خصائص الألفاظ والتركيب ، ومجيء لفظ نكرة في حديثه(ﷺ) لم يكن مصادفة ، فالعلاقة وثيقة بين النكرة والسياق ، ولكنه مقصود في كل موضع ليتناسب مع السياق الذى ورد فيه، وفيها ينتقل المعنى الظاهر إلى معنى وجداني، وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى هذا من خلال تعرضه للتنكير في قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[٣] فيقول(إذا أنتَ راجعتَ نفسَك وأذكيتَ حسَّك، وجدتَ لهذا التنكيرِ وإنْ قِيلَ: "على حياةٍ"، ولم يُقَلْ: "على الحياةِ"، حُسْناً وروعةً ولطفَ موقعٍ لا يقادره قدرُه، وتَجِدُكَ تَعْدَمُ ذلكَ مع

---

(١) الطراز(٢/ ٨).

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لكمال الدين عبدالواحد الزملكانى الأنصاري (ت ٦٥١هـ)، تحقيق، د/ أحمد مطلوب ، د/ خديجة الحديثى ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط١- ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م ، ص(١٣٦).

(٣) سورة البقرة : من الآية رقم(٩٦).

التعريفِ، وتخرجُ عن الأريحيةِ والأُنْس إلى خلافِهما)[١]، ومن البيان بالإبهام بطريق التنكير في القرآن الكريم قوله تعالى في قصة سيدنا يوسف:(ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ)[٢] ، والناظر في الآية يجد أن كلمة (أرضاً) جاءت نكرة لتشعر بأن هذه الأرض أرض خلاء مجهولة منكرة تهلك من يأتيها ؛ وهذا تصوير بارع لنفوس إخوته ، وأن هذا كان لحسدهم أخاهم يوسف على محبة أبيهم له، وهدفهم في التفريق بينه وبين أبيه، ولذا يقول الزمخشري :(أرضاً) أرضاً منكرة مجهولة بعيدة عن العمران ، وهو معنى تنكيرها ، وإخلائها عن الوصف ، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة[٣])[٤].

وقد اشتملت السنة النبوية المطهرة على أحاديث كثيرة حوت ألفاظاً نكرة تدل على مدى بلاغته واختياره(ﷺ) لصيغ تتناسب مع أفكار الناس ومعتقداتهم وتؤثر فيهم ، ومن المعاني التي أفادتها النكرة في السنة النبوية ودل عليها السياق التعظيم ، ومعنى التعظيم هو: أن الشيء قد بلغ مبلغا عظيماً ومن هذه الأحاديث:

ما رواه أبو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ

(١) دلائل الإعجاز(١/ ٢٨٨).

(٢) سورة يوسف: الآية رقم (٩).

(٣) الظرف المبهم هو : ما ليس له هيئة ولا شكل محسوس ولا حدود تحصره بين نهايات مضبوطة ، ومنه الجهات الست وهي (أمام – خلف – يمين – شمال – فوق – تحت) ينظر: النحو الوافي، عباس حسن ، دار المعارف ، ط١٥ (٢ / ٢٥٣)

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله محمود الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط٣، ١٤٠٧ هـ، (٢ / ٤٤٢) .

" قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ:« فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا»[1] .

يبين لنا الحديث الشريف أثر الصلاة على المؤمن ، وما تتركه من أثر في عمله، كما أنها تطهره من ذنوبه وتجدد طهارته الحسية في البدن والثوب ، وكذلك طهارته النفسية والقلبية مع كل صلاة ، مثل النهر القائم بباب أحد الناس ويغتسل فيه خمس مرات فلا شك أن هذا الإنسان لن يبقي بجسده أي أثر للأوساخ الجسدية ، فكذلك الحال من الخطايا والذنوب إذا داوم الإنسان على صلاته، وقد تعددت مصادر الجمال للتصوير البلاغي في الحديث الشريف للدلالة على هذه المعاني ، منها التشبيه المرسل الذى بنى عليه الحديث ، وخفى وجه الشبه فيه ، فدعا عقل السامع لاستنباطه ، وأقنعه بالمراد من خلال استخدامه لمخيلته البصرية من خلال رؤية الغسل بالنهر ، ومنها مجيئ لفظ (نهراً) نكرة ليوحي بالتفخيم والتعظيم والاتساع لهذا النهر المشبه به الصلاة ، فعظمته ونفعه لا يحيط بهما وصف ولا يدركهما عقل ويذهب السامع في تخيلهما كل مذهب ، أي (لو أن نهرا عظيما واسعا بباب أحدكم..)، فهو نهر بلغ من عظمته واتساعه وكثرة نفعه ، عجز العقول عن إدراك كنهه ، وكل هذه المعاني لا تأتي مع تعريفه ، فتولد من هذا الإبهام بيان لفضل تلك الصلوات الخمس التى تشبه النهر العظيم الواسع الكافي لإزالة كل الأوساخ ، ومع أن الاغتسال لا يكون فى النهر كله، بل فى جزء منه، إلا أن الحديث عبر عن الاغتسال فى النهر كله فى قوله:(ﷺ)(يَغْتَسِلُ فِيهِ) حيث جاء بأسلوب بياني رائع وهو المجاز المرسل علاقته الجزئية ، حيث أطلق لفظ النهر، وأريد جزء منه؛ لتوحى

(١) أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب / مواقيت الصلاة، باب / الصلوات الخمس كفارة ، حديث رقم (٥٢٨)، (١١٢/١).

الكلية فى النهر بشمول الجسد وكمال الطهارة ، وقد تآزر معه الاستفهام فـي(أَرَأَيْتُمْ) حيث جاء للفت انتباه السامع لأهمية الصلاة وحثه على الاستعداد لها فهي تهذب البدن والأخلاق والروح ، كما فيه تقرير وإثبات لأثر الصلاة على نفس المسلم، وتجدد محو ذنوبه كلما تجدد اغتساله في هذا النهر العظيم ، وهنا قد أوقفتنا النكرة و ما تضمنته الإبهام على (تعريف وإفهام يعجز عنه تعريف العلم ، ويقصر عن صنيعه بيان القلم)[١] ونرى البلاغة النبوية ودقته(ﷺ) في اختيار ألفاظ تأتى لتعضد هذا التعظيم لشأن الصلاة والتي عبر عنها بالنهر فى الحديث الشريف، فعبر بلفظ (النهر) دون (البحر) لصفائه وعذوبته ، ولاستكمال معانى التعظيم و بيان عموم نفعه ، وأن الاغتسال بماء النهر لا ينتج عنه أملاح أو رواسب يتضرر منها الجسد، فهو صالح لكل وجوه الانتفاع بخلاف الماء المالح ، فاجتمع مع عظمته وسعته نقائه ونفعه ، وقد جاءت(الباء) في (بباب) للإلصاق لتوحى بقربه الشديد، فالغسل فيه لا يتطلب جهداً ولا وقتاً للذهاب إليه ، فهو وسيلة للمنفعة قريبة ميسرة، ، وبذلك كان التنكير غاية الإصابة وقمة البيان ، وبعث في النفس تأثيراً متصاعداً تفاعل من خلاله السامع مع المتكلم، فأوقع في نفسه المعنى موقع القبول.

ومنه ما رواه أبو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ(ﷺ) قَالَ: «السَّفَرُ **قِطْعَةٌ** مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ»[٢]

(١) التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكانى ت/ د. أحمد مطلوب ، د/ خديجة الحديثى ، ط١، ١٣٨٣هـ، م، ١٩٦٤م ، مطبعة العاني، بغداد ، ص(٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب/ الحج، باب/السفر قطعة من العذاب، حديث رقم (١٨٠٤)،(٣/ ٨).

يبين لنا النبي الكريم(ﷺ) في هذا الحديث الشريف الألم الناشئ عن المشقة في السفر لما فيه من المعاناة من الحر والبرد ومفارقة الأهل والأحباب، وترك المألوف من الطعام والشراب، والركوب والنزول، فنرى أن التنكير فى(قطعة) أظهر مدى الألم والمشقة التى يعانيها المسافر، فهذا الإبهام قد أفاد التعظيم وبيَّن أن السفر قطعة عظيمة من العذاب ، لا يعرف مقدارها وتنأى عن الوصف لعظمتها ، فقد استحوذت على النصيب الأكبر والأعظم من العذاب، وقد شبه العذاب بشيء حسى يمكن تجزئته وتقطيعه ، والسفر قطعة كبيرة عظيمة منه بدليل تخصيصها بالجار والمجرور(مِنَ العَذَابِ) وكأن السفر هو العذاب بعينه ، والعذاب هو السفر ، ويؤكد على عظم تلك المشقة في السفر قوله(ﷺ):« يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ» ففيه منع لكل وسائل الراحة ، ومصادر القوة من الطعام والشراب فنتج عنه متاعب جسدية ونفسية ، لذلك جاء الأمر بتعجيل العودة إذا قضى الغرض من السفر ، وعلى هذا تولد من رحم الإبهام البيان التام لصعوبة السفر ومدى ما يتكبده المسافر من الصعوبات لم يكن متحققاً هذا المعنى لو ذكر صراحة .

ومنه ما رواه أبو مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ(رضي الله عنه)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ) «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ **فِتَنًا** كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا **مُؤْمِنًا**، وَيُمْسِي **كَافِرًا**، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ **بِعَرَضٍ** مِنَ الدُّنْيَا **قَلِيلٍ**»(١)

(١) أخرجه الترمذي فى الجامع الصحيح ، وهو لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة المصطفى البابى الحلبي وأولاده ، ط٢ ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، كتاب / الفتن والملاحم ، باب/النهى عن السعي فى الفتنة ، حديث رقم (٤٢٥٩)، (١٠٠/٤).

يُبيّن الهدى النبوي لنا صورة من صور أهوال يوم القيامة ، ومشهد مخيفاً من مشاهد الفناء الدنيوي عندما تقرع القارعة ، ويقوم الناس لرب العالمين ، وتظهر أمارات هذا الفناء وأحداثه الجسام بظهور الفتن الكثيرة التي تحيط بالإنسان في صورة تجعله يحس بالبلاء الذى ينزل، وكأنها محسوسة مرئية رأى العين، والفتنة أصلها الاختبار والامتحان(١)، والمراد منها في النص الشريف المحنة والإثم والفضيحة ، وكل مكروه كالكفر(٢)، وهنا شبه الرسول الكريم الفتن بقطع الليل المظلم ؛ ولأن المقام مقام تحذير وتهويل فكان بحاجة إلى وصف وتخصيص يزيده هولاً وشدة ، فقابل جمع الفتن بجمع القطع ، فلم تأت مفردة وكأن كل فتنة يقابلها قطعة ليل مظلم ، وتبرز البلاغة النبوية في إضافتها إلى الليل المهيب ، وزاده مهابة بوصفه مظلم ليس فيه نور يلوح ، فتأتى هذه الفتن متلاحقة متتالية كما يأتي الليل متلاحق الأجزاء ، ويؤكد أيضاً على أن هذه الفتن موغلة في مهاوى الطغيان والانحراف عن طريق الحق ، فوصفها بقوله(ﷺ):(كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ) فهي فتنة مظلمة كظلمة الليل المهيب الذى يملئ أرجاء الكون ، كما أن هذه الفتنة تملأ أرجاء الأرض وتشمل جميع البشر، وهى متواصلة لا نكاد نجد فاصلاً بين فتنة وأخرى فتحيط بالإنسان أينما حل، كالليل الذى يدركه أينما ذهب، ويفصح التنكير فى لفظ (فِتَنًا) عن ماهية تلك الفتن ، وما فيها من التهويل والتفخيم ، والتحذير والترهيب من أن ينقلب حال المرء من الهدى إلى الضلال ومن الصلاح إلى الفساد بين عشية وضحاها، وقد جاءت(فِتَنًا)مجموعة وموصوفة لفظاً بالجار والمجرور لتأكيد معنى التفخيم

(١) اللسان مادة (فتن).

(٢) كشف المحن فى علامات الساعة والملاحم والفتن، محمود رجب حمادي الوليد ، مكتبة عباد الرحمن ، ط ١، بيروت ، لبنان، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م ، ص(١١٧).

والتهويل ، وقد تآزر مع لفظ النكرة لإفادة معنى التهويل والترهيب مجيئه بعد الفعل(تكون) ليفيد تحقق الفتنة في الدين وغيرها من الفتن إذا ما اقتربت الساعة، ومع تعدد الفتن إلا أن خسارة الإيمان والدين تكون هي أعظم الانتكاسات والمصائب ، ويأتي النظم النبوي الشريف ليكمل نظم الدرر فنجد تنكير آخر مع المقابلة في(كَافِرًا، مُؤْمِنًا) يصور لنا المرء الذى يميل مع هواه ويفضل متاع الدنيا الزائل، ويبيع دينه بعرض من الدنيا بخيس، وتخصيص اللفظين المنكرين بالأوصاف المهينة حيث يصبح المرء مؤمنا كاذباً ، ويمسي كافراً عنيداً أو العكس فيكشف التنكير عن تذبذبه وتبدل حاله وانحرافه عن الحق في يوم يتطلب الثبات والإيمان بالله ، ويروع التنكير المؤمن ويحذره من بيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، وقد دلل على ذلك حرف الجر(من) فى(مِنَ الدُّنْيَا)، ويتوالى البيان بالإبهام من خلال التنكير أيضاً في(عرض، قليل) والدال على معناه من التقليل ليدعم التنكير السابق ويظهر تحقير هذا العرض الدنيوي ، وبذلك تعددت دلالات التنكير في الحديث الشريف فدلَّ في(فِتَنًا) على التفخيم والتهويل والتكثير، وفى(كَافِرًا، مُؤْمِنًا)على التحقير والتحذير، وفى(عرض) على التقليل مع أن اللفظ مبهم إلا أنه تولد منه معانى لا تدل عليها المعرفة وبذلك تبدو لنا فائدة اللفظ المنكر في النظم النبوي الشريف بمعونة المقام والسياق فهو يدعو الخلق جميعاً إلى الاستعداد لهذه الفتن ، والتأهب لمقاومتها ولاسيما فتنة الدين ، وذلك من خلال التمسك بأوامر الله ونهج رسوله ، والعمل الصالح والحرص على الفضائل فضلاً عما أفاده التنكير أيضاً من الكثرة والتنوع فهى فتن متميزة فى أنواعها ومصائبها ، وبذلك أفصح الإبهام المتمثل فى التنكير عن كل هذه المعاني.

ومن الأحاديث التي جاء فيها البيان عن طريق النكرة لمعنى التعظيم أيضاً ، ما رواه أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ(ﷺ): أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ(ﷺ)عَلِّمْنِي دُعَاءً

أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي، قَالَ: « قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي **مَغْفِرَةً** مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ »[(١)] حيث جاءت(مغفرة) نكرة وذلك لتعظيم تلك المغفرة المرجوة من رب العالمين ، وجاء التنوين فيها لِلتَّعْظِيمِ، أَيْ: غُفْرَانًا لَا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ وَصْفُ وَاصِفٍ؛ لِأَنَّه مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فالتنكير أفصح عن عظم هذه المغفرة المرجوة وكثرتها والتي تتناسب وحال المؤمن الخاشع الخائف من ربه فيطلب مغفرة لا توصف لتكون شاملة لكل الذنوب مطهرة له من كل الخطايا وتنقيه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، ووصف المغفرة بأنها من الله تعالى وإسنادها له –جل شأنه– مع أنها لا تكون إلا منه سبحانه ؛ تأكيداً للتعظيم والتفخيم، وقَالَ الطِّيبِيُّ: (وَفِي الْوَصْفِ بِقَوْلِهِ:(مِنْ عِنْدِكَ)، مُبَالَغَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى الْمُرَادِ بِالتَّنْكِيرِ)[(٢)]، وبذلك جاءت النكرة وقد كشفت عن عظم هذه المغفرة المرجوة فهى مغفرة لا توصف فهو سبحانه المتفضل بها فلا يعرف قدرها، كما فيها بيان لخضوع العبد وتذلله لله ؛ ليمن عليه بمغفرة تمحو كل ذنوبه لا تترك منها شيئاً ، وهذا لحرص العبد المؤمن على لقاء ربه خالياً من ذنوبه التي أقر بها فى دعائه(إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا) فيرجو مغفرة تناسب عظم تلك الذنوب .

ولم تقتصر النكرة على إفادتها للتعظيم فقط ، ولكن هناك أحاديث جاءت النكرة فيها لتفيد التقليل منها: ما روى عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (ﷺ)، وَغَيْرِهِ أَنَّ (ﷺ) قَالَ: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ **هَوْنًا** مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ **يَوْمًا** مَا،

(١) أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب / الآذان، باب / الدعاء قبل السلام ، حديث رقم (٨٣٤)، (١/ ١٦٦).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن(سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت – لبنان ، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، (٢/ ٧٥٣).

وَأَبْغَضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا»[1]

فالحديث الشريف يرشدنا إلى عدم الإفراط والتفريط في المعاملة مع الناس ، فيجب علينا أن نقتصد فلا نسرف في الحب والبغض، فعسى أن يصير الحبيب بغيضًا، والبغيض حبيبًا، فالزمان يتقلب والأحوال تتغير، فلا نكون قد أسرفنا في الحب فنندم ، ولا في البغض فنستحى، وقد جاءت ألفاظ الحديث خادمةً للمعنى المراد من خلال أسلوب الأمر الذى يحمل معانى النصح والإرشاد(أحبب ، أبغض) والتعليل التابع لكل أمر، ليؤكد على المطلوب في ثوب من الإقناع والتأثير، ومنها مجيئ لفظي(هوناً، يوماً) نكرة للدلالة على التقليل ، فالمراد الاقتصاد فيهما وعدم الإكثار منهما، فالحب يكون هوناً لا إكثار فيه وكذلك البغض ، وتعاضد مع التنكير(ما) الإبهامية والتي تزيد النكرة إبهاماً وشيوعاً وتسد عنها طرق التقييد[2]، يقول صاحب الطراز:(فأتى بالهون منكراً مبهماً وباليوم منكراً مبهماً، ليدل بهما على شدة المبالغة في المفقود، وإنما قيد الأول بالهون والثاني باليوم على جهة الإبهام ولم يعكس الأمر فيهما؛ لأن الأول موجه على جهة الأمر، بخلاف الثاني)[3]، وقد تآزر مع التنكير المقابلة التى بنى عليها الحديث ، وتكرار الإضافة بكاف الخطاب لاستحضار ذهن السامع بخطابه ،وبهذا جاء التنكير مفصحاً عن المعنى المراد من الحديث الشريف .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، باب/ ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض ، حديث رقم (١٩٩٧)،(٤/٣٦٠).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، لزين الدين محمد الحدادي المناوي القاهري ، المكتبة التجارية الكبرى – مصر ، ط١/ ١٣٥٦م، (١/ ١٧٦).

(٣) الطراز(٢/ ٤٦).

ومنه ما رواه النعمان بن بشير (ﷺ)أن النبي(ﷺ) قال«أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ **مُضْغَةً:** إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ »[١]

وضح لنا الحديث الشريف أن القلب هو موطن الإيمان الحق من التصديق والإخلاص واليقين ، والعقيدة والاعتقاد ، والأمن والأمان، وقد جاءت(ألا) للتنبيه لتجعل السامع ينتبه ويعرف أهمية ما يقال بعدها ؛ وتشوقه لمعرفة المراد من هذا اللفظ المنكر المجهول؛ لأن ذلك مما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام والعناية به، فالقلب كالجسد يتأثر سلباً وإيجاباً، بحسب المؤثرات التي تحيط به فهو يصح ويمرض، ويسعد ويشقى ويجوع ويشبع ، ويكسي ويعرى، ومعنى(مضغة) أي: قطعة من اللحم وسميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها[٢] ، وهى كناية عن موصوف ؛ لتبين طبيعة القلب البشرى من التقلب ، وميله إلى التساهل ، والانفلات من تكاليف الدين له ، وقد جاءت نكرة ليشير إلى تقليلها تعجباً من أمرها، فهي مع صغرها إلا أنها عليها صلاح الأمور، وبصلاحها يسعد الإنسان ، وبفسادها يشقى ويضل ، وتأتى الصورة البيانية في قوله:(إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ) لتؤكد لنا طبيعة هذه المضغة المتقلبة فشبهها بالشيء الذى يصلح بتعهده والحفاظ عليه، ويفسد بإهماله، وجاء التأكيد المعنوي(كُلُّهُ) مكرراً ليؤكد المعنى في النتيجة الحتمية التي سوف يصل إليها الشخص في الحالتين ، وأنها حقائق لا تقبل النقاش والجدل ، ويؤكد ذلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ، حديث رقم (٥٢)،(١/ ٢٠).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لأبى محمد بدر الدين العينى الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت(١/ ٢٩٨).

مجيئه بالأسلوب الخبري مشتملاً على إبراز المعنى بالضد بين الجملتين ، وجاء الارتباط والتماسك في الحديث من خلال أسلوب الشرط وجوابه ليدل على مدى ارتباط تلك المضغة بصلاح المسلم وفساده فهي مدار حياته على الرغم من قلتها وصغر حجمها ، وخاصة الإتيان بـ(إذَا) الشرطية والتي تأتى في مواطن التحقق والتأكيد .

ويدخل أيضاً تحت هذا الباب المصدر المنصوب على المفعولية المطلقة حينما يكون مؤكداً لعامله ، فإن المتأمل فيه يجده منطوياً على إبهام يشعر بمزيد من التأكيد والتفخيم للمعنى ، ومن ذلك قول الله تعالى:(إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا)[1]، فالتعبير بالمصدر المبهم (رجاً) و(بساً) للدلالة على أنه أمر عظيم لا يحيط به وصف ، يقول الطاهر بن عاشور: (وتأكيده بالمصدر للدلالة على تحقيقه وليأتي التنوين المشعر بالتعظيم والتهويل)[2].

ومن الأحاديث النبوية التي اشتملت على المصدر المنصوب على المفعولية المطلقة وجاء المصدر ليفيد التأكيد على حدوث الفعل مرة واحدة ، ومما يندرج تحت هذا ما روى عن عَائِشَةَ(رضي الله عنها): أنَّ النَّبِيَّ (ﷺ)«صَلَّى في خَمِيصَةٍ لَهَا أعْلَامٌ، **فنَظَرَ إلَى أعْلَامِهَا نَظْرَةً**، فلَمَّا انصَرَفَ قالَ: " اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هذِهِ إلى أبِي جَهْمٍ، وأْتُونِي بأنْبِجَانِيةِ أبِي جَهْمٍ، فَإنَّهَا ألهَتْنِي آنِفاً عَنْ صَلَاتِي»[3]

---

(١) سورة الواقعة: آية (٤ ، ٥) .

(٢) التحرير والتنوير، للأستاذ الشيخ / محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ، تونس، ١٩٨٤م، (٢٨ / ٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / الصلاة ، باب/ إذا صلي في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها ، حديث رقم (٣٧٣) ، (١/ ٨٤).

ويرشد الحديث الشريف إلى ضرورة الخشوع في الصلاة وعدم الانشغال بأي شيء وذلك من خلال سرد موقف للنبي(ﷺ) حيث كان يصلى في كساء مزخرف بخطوط جميلة، تروق النظر، وتستهوي البصر، وتشغل القلب والفكر[١]، فنظر إلى أعلامها نظرة قليلة خاطفة لم تستغرق وقتاً من صلاته ، فلما انتهى من صلاته أمر بردها واستبدالها بشيء لا يلفت النظر، فجاء المصدر المبهم(نظرة) مصاغاً على اسم المرة ؛ لإفادة التقليل وللتأكيد على أنها كانت نظرة واحدة لم تتعد إلى حد التدقيق والانشغال، وبناء المرة، هي لأقل ما ينطلق عليه الاسم ، وبالإضافة إلى أنه يستعمل لغوياً على حدوث الفعل مرة واحدة ، أفاد أيضاً في الحديث الشريف أن الفعل نفسه لم يكتمل بدليل تنكيره ، فالخميصة لم تشغل رسول الله، ولم تلهه عن صلاته، ولكن قرب أن تفعل ذلك فأطلق على ما يقارب فعل الشيء أنه فاعله للدلالة على شدة تأثيره من باب التعبير عن المضارع بلفظ الماضي في(أَلهَتْنِي)، فنظرته(ﷺ) إليها نظرة قليلة، كما تشير إلى شدة حسن الخميصة وتأثيرها في النفوس ، ولعظم المقام وهو الصلاة حرص النبي الأمين(ﷺ) ألا يكون هناك مدخلاً للسهو فيها ، وقد أدت النكرة دورها في بيان حرص النبي الأمين على الصلاة ، وبعده عن كل ما يلهى فيها.

ومنه ما روى عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّهُ سَمِعَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ(رضي الله عنها)، تَقُولُ: « قَامَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) خَطِيبًا فَذَكَرَ فِتْنَةَ القَبْرِ الَّتِي يَفْتَتِنُ

(١) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري ، لحمزة محمد قاسم، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار البيان، دمشق ، سوريا، مكتبة المؤيد، الطائف ، المملكة العربية السعودية ، عام النشر: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، (١/ ٣٩٠).

فِيهَا المَرْءُ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ **ضَجَّ** المُسْلِمُونَ **ضَجَّةً**»[1].

يعرض لنا الحديث الشريف معجزة من معجزاته ودلائل صدق نبوته (ﷺ) وإخباره عن الغيبيات التي يطلعه الله عليها ، وقد يكون فيها نعيم للحث على عمل الخير أو عذاب للتحذير والأمر بترك كل شر، وفى الحديث يُذكر النبي الكريم الصحابة رضوان الله عليهم بالدارة الآخرة حتى أتى على ذكر القبر وفتنته وأهواله ، ولما سمعوا ذلك صاحوا صيحة عظيمة تكشف عن مدى هلعهم وتأثرهم بذكر هذه المواقف، فجاء المصدر المنصوب(ضجة) فيه إبهام يشعر بعظم الموقف وشدته ، فكانت النتيجة أنهم صاحوا وجزعوا جزعاً عظيماً من شدة الخوف والهلع ، وجاء المصدر المبهم المؤكد لعامله مسوقاً لتأكيد معنى عامله في النفس، وتقويته، ولتقرير المراد منه، أي: لإزالة الشك عنه، ولبيان أن معناه حقيقي لا مجازي [2] والتنوين فيه يؤكد المعنى، فالهلع والصياح كان حقيقياً بحكم المقام المتحدث عنه وهو فتنة القبر، فجاء البيان من رحم الإبهام الكائن في المصدر المبهم.

ومنه ما روى عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: « قُلْتُ: يَا رَسُول اللَّهِ **قُلْ لِي فِي الإِسلامِ قَولاً** لاَ أَسْأَلُ عنْه أَحداً غيْرِكَ. قَالَ: "قُلْ: آمَنْت باللَّهِ: ثُمَّ اسْتَقِمْ »[3]

فالصحابة(ﷺ) كانوا يحرصون على تعلم أمور الدين التي تقربهم إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب، الجنائز، باب/ ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم (١٣٩٣)، (٢/ ٩٨).

(٢) النحو الوافي (٢/ ٢١٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب / الايمان ، باب/ جامع أوصاف الاسلام ، حديث رقم (٣٨) ، (٦٥/١).

الله تعالى، وتجعلهم على الطريق الحق ، والصحابي الجليل يسأل عن قول يكون جامعاً لصلاح الدين ، فجاء لفظ (قولاً) بصيغة النكرة المبهمة ؛ ليشعر بعظم المسئول عنه وأهميته ، ولتبين أنه يسأل عن قول عظيم يكون بداية الطريق الصحيح للهداية والقرب من الله تعالى ويؤكد ذلك الجملة (لاَ أَسْأَلُ عنْه أَحداً غيْركَ) فالنبي هو الأعلم بأمور الصلاح من غيره ، فأدت النكرة التي جاءت من لفظ الفعل لتؤكده وتقويه دورها فى البيان والكشف عن عظمة هذا القول المراد معرفته ، وتأتى الإجابة(آمَنْت باللَّهِ: ثُمَّ اسْتَقِمْ) فكان الصلاح بالإيمان وهو التصديق القلبي الذى يضمن قيام المؤمن بكل الطاعات بصدق وطاعة لله تعالى ، ولم يكن الصلاح مقتصراً على القول فقط ، ولكن يكون بالفعل أيضاً من خلال الاستقامة والسير على منهج الله عز وجل.

المبحث الثانى

البيان بالإبهام عن طريق الموصولية

والاسم الموصول هو: الاسم المبهم، الذي يحتاج في توضيحه، وتعين المراد منه إلى شيء يتصل به، يسمى الصلة وهي مشتملة على ضمير أو شبهة يربطها به، يسمى العائد [1]، وهو اسم مُبْهَمُ الدلالة لولا صلته الكاشفة للمراد به، وهذا الإبهَامُ الأوَّليُّ في اسم الموصول يُحْدِثُ تشَوُّفاً وتَشَوُّقاً في نَفْسِ المتلَقِّي لمعرفة المراد به عن طريق صِلَته.

فهو يُعْتَبَر من أدوات البيان التي تنفتح لها أبواب النفس انفتاحاً تلقائياً فتتلقَّفُهَا بالدافع الذّاتي إلى المعرفة بسبب استثارته للدّاعي النفسيّ إلى المعرفة[2]، **ومن** ذلك قول الله تعالى:(ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)[3].

حيث جاء الاسم الموصول هنا للتعريف بالفاسقين وقد عرفوا بصفات ثلاث وهي(نقض العهد)،(قطع ما أمر الله به أن يوصل)،(الإفساد في الأرض) والمراد بهم اليهود وهم قد عرفوا بما دلت عليه الصلة ، بل قد شهدت عليهم كتب أنبيائهم بأنهم نقضوا عهد الله غير مرة ، وقد اعترفوا

---

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لعبد الله بن يوسف بن أحمد ، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي ، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (١/ ١٤٤).

(٢) البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، دار القلم ، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م(١/ ٤٢٩) (بتصرف يسير).

(٣) سورة البقرة: الآية رقم(٢٧) .

على أنفسهم بذلك ، فناسب أن يجعل النقض صلة لاشتهارهم بها[١].

وتفتقر الاسماء الموصولة إلى صلة ؛ لأنها مبهمة المعنى، غامضة المدلول، لا تدل على شيء معين، فلا بد لها من شيء يعرفها، ويزيل إبهامها وغموضها ، فتكون جملة صلة الموصول خبرية معهودة مشتهرة لدى المخاطب حتى يزيل بها هذا الإبهام ، وتقع عنده موقع الإفادة والقبول إلا في مقام التهويل والتفخيم، فيحسن إبهامها. [٢]

وقد تحدث صاحب الطراز عن البيان عن طريق الاسم المبهم، ومثَّل له بأمثلة كثيرة للإبهام بطريق الموصولية ذكرها من سبقه، ومنه قوله:(ومنه قول بعض المتأخرين : فؤاد فيه ما فيه) فهذا في غاية المبالغة لإبهامه)[٣] .

هذا هو الأصل ، وقد يأتي الأمر على خلاف ذلك ، فتأتي جملة الصلة مبهمة تذهب النفس فيها كل مذهب ، وجاء في شرح السعد (وقد يعدل عن هذا الأصل إلى الإبهام لأجل تلك النكتة أي تعظيم المسند إليه ، وتهويله كذا قيل ، وفيه أن الذى ذكره النحاة أن الصلة يشترط فيها أن تكون معهودة إلا في مقام التعظيم والتهويل)[٤]، وقد مثلوا لهذا بقول الله تعالى :(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)[٥]أي غشيهم من اليم أمور عظيمة مبهم أمرها ، فدَلَّ الإبهام في الموصول وصلته عَلى عِظم الأمر المهول الذي غشيهُمْ .

---

(١) التحرير والتنوير(٣٦٧/١).

(٢) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك(١/ ١٦٨) (بتصرف).

(٣) الطراز(٤٧/٢).

(٤) حاشية الدسوقى على شرح السعد(٣٠٦/١).

(٥) سورة طه: آية(٧٨).

والحديث النبوي يورد نفس الأسلوب الذى ينتهجه القرآن الكريم ، ومن ذلك ما روى عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(رضي الله عنه)أن النبي(ﷺ) قَالَ:« بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: **لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي**، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَه ...» (١)

والحديث الشريف يحثنا على الرفق بالحيوان مهما قل شأنه ، ونجد أن الاسم الموصول في قوله(ﷺ):(لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي) فيه إبهام أدى إلى التفخيم والتهويل من شدة العطش الذى أصاب الكلب حتى أنه يأكل الثرى من شدة العطش، ونجد أن جملة(بَلَغَ بِي) صلة الموصول لم ترفع الإبهام عن الاسم الموصول(الذى) قبلها ، وذلك مقصود مراد ؛ لأن من شأن هذا الإبهام أن يجعل النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو عبر بغير الاسم الموصول ما أفاد الذى أفاده الاسم الموصول من بيان شدة العطش الذى أصاب الرجل والكلب معاً ، فهو عطش شديد ترتب عليه فقد الطاقة والقوة التي لا يستطيع وصفها ، وهذه من بلاغته وجوامع كلمه(ﷺ) فالإبهام إثراء للمعنى ، وإيجاز في القول ، لا تفى بها العبارة.

ولنتأمل الإبهام فى حديث أبى هريرة فى قوله:(ﷺ) « فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ **بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ** مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ ييأس مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ **بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ** مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»(٢).

فهذا الحديث النبوي الشريف يتحدث عن العلم الذى لا يعلمه إلا الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / المساقاة، باب/ فضل سقي الماء، حديث رقم (٢٣٦٣)، (٣/ ١١١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / الرقاق، باب/ الرجاء مع الخوف ، حديث رقم (٦٤٦٩) ،(٨/ ٩٩).

وعلمه لنبيه الكريم (ﷺ)، كما أن فيه دعوة للإنسان أن يسير إلى الله تعالى وهو بين الرجاء والخوف ولو علم المؤمن ما عند الله من العذاب ما أمن من عقابه ، فقد يعاقب المؤمن ، بسبب الآثام والمعاصي وإن قال لا إله إلا الله ، وقد جاء التركيب الشرطي في الحديث ليربط بين جملتي فعل الشرط وجوابه ، وهذا هو المغزى من الحديث ، فلو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما كان لديه قنوط من جنته سبحانه وتعالى فقنوطه مرتبط بجهله برحمة الله الواسعة ، وقد جاء الفعل(يعلم) دون(علم) لتحقيق أن هذا العلم لم يحصل له في الماضي ولن يحصل له في المستقبل، وجاء في فتح الباري (والحكمة في التعبير بالمضارع دون الماضي الإشارة إلى أنه لم يقع له علم ذلك ولا يقع لأنه إذا امتنع في المستقبل كان ممتنعاً فيما مضى)[(١)] وهذه دعوة للمكلف أن يكون بين الخوف والرجاء ، وكلما كان المطلوب قريباً يطمع الإنسان فيه ويسعى إليه ، وزاد نشاطه ، وقد قدم الحديث عن الكافر؛ لأن سعة الجنة وعظم رحمة الله الحالة فيها تقتضي أن يطمع فيها كل أحد ، لذا جاء الموصول المفيد للإبهام في قوله:(بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ) للدلالة على أن رحمة الله عظيمة ، لا يحيط بها وصف لكثرتها فهي رحمة تتسع لخلقه لا يمكن وصفها، وكذلك قوله:(وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ) يكشف الموصول عن عظم عذاب الله وهوله وشدته ، وأنه لا يكتنهه وصف ولا يفي به البيان، ولا يحيط به علم، وفيه دعوة للمؤمن لعدم الإفراط في الرجاء ولا يقول لا يضر مع الإيمان شئ، ولكن يظل يرجو رحمة الله ويخاف عذابه، ويعمل الخير ويطلب من الله

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لزين الدين عبد الرحمن ، السَلامي، الدمشقي، الحنبلي، مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية. ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م ، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وغيره (١١ / ٣٠٢).

القبول ، ولم يذكر الحديث كيفية العذاب ولا الرحمة ولا قدرهما ، فجاءتا مرسلتان دون تحديد أو تعيين حتى يدع الإبهام الذهن يتصور عظم رحمة الله المعدة لمن يرجو رحمة ويخشى عذابه، وكأن عبارات الوصف تضيق عنه ؛ وذلك لينـدفع المتلقي إلى التزود بالعلم ليقرب من هذا الخوف، وقد ذكر الإمام عبد القاهر(الذى) ومجيئها في الخبر الموهوم (وليس شيء أغلب على هذا الضرب الموهوم من «الذي»، فإنه يجيء كثيراً على أنك تقدّر شيئاً في وهمك، ثم تعبر عنه بالذي)[1] وقد تعاضد مع هذا الإبهام الذى يدل على عظم رحمته وعذابه تعالى مدى عنايته وبلاغته (ﷺ) في التوصيل للمتلقي المقابلة بين الجملتين، فعند ذكر الجملة الأولى تدرك الثانية دون كد وجهد ؛ لأنها مقابلة المعنى وضده، فحفظ كلامه الشريف في صدور المتلقين في أبهى صورة وأسمى عبارة ، وأكدت على أن الحديث يخاطب الناس كافة ويفهمه الجميع ؛ لأن رسالته (ﷺ) للناس جميعاً وبذلك لم ينحصر دور المقابلة في التحسين اللفظي فقط ، بالإضافة إلى أن الإيقاع الذى أحدثه التكرار التركيبي قد أدى وظيفته في تبليغ الرسالة في شكل جمالي ساهم في سمو الفكرة لدى المتلقي، وأثرت في حالته النفسية وتجاوبه مع الحديث الشريف ووقعه في نفسه.

ومن ذلك ما جاء من حديث عكرمة قال: أَنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزَّبِيرِ ،... وَسَمِعَ أَنَّهَا قَدْ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنَانِ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ، إِلَّا أَنَّ مَا مَعَهُ لَيْسَ بِأَغْنَى عَنِّي مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَتْ هُدْبَةً مِنْ ثَوْبِهَا، فَقَالَ: كَذَبَتْ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي لَأَنْفُضُهَا نَفْضَ الأَدِيمِ، وَلَكِنَّهَا نَاشِزٌ، تُرِيدُ رِفَاعَةَ، فَقَالَ

(١) دلائل الإعجاز، ص(١٢٥).

رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): " فَإِنْ كَانَ ذَلِكِ لَمْ تَحِلِّي لَهُ، أَوْ: لَمْ تَصْلُحِي لَهُ حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عُسَيْلَتِكِ " قَالَ: وَأَبْصَرَ مَعَهُ ابْنَيْنِ لَهُ، فَقَالَ: «بَنُوكَ هَؤُلَاءِ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: « هَذَا الَّذِي **تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ**، فَوَ اللَّهِ، لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الغُرَابِ بِالْغُرَابِ» (١)

يقرر الحديث الشريف حكماً فقهياً وهو عدم جواز رجوع الزوجة لطليقها الذي طلقها ثلاثاً إلا أن يدخل بها زوجها الثاني دخولاً حقيقياً ، كما فيها بيان لحكمته (ﷺ) واستدلاله على كذب الزوجة بالمشاهدة وثبوت الشبه بين عبدالرحمن وبنوه ، وتظهر بلاغته(ﷺ) من خلال تعبيره عن شدة وهول وتعظيم ما تزعمه المرأة من ضعف زوجها وعدم قدرته على المباشرة من خلال الاسم الموصول في قوله(ﷺ):« تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ» وما أفاده الإبهام في(ما) من معانى التهويل والتعظيم من شأن زعمها وأبان الإبهام عن شيوع الكذب فيه، كما نجد أن جملة الصلة(تَزْعُمِينَ) لم ترفع الإبهام عن الموصول، والغرض عظم هذا الزعم و بيان شدته وأنه زعم كاذب ، وليدع الإبهام الذهن يتصور شدة هذا الزعم وأن قبحه تضيق عن وصفه العبارات، ويقول ابن الأثير:((ما) فيها من الإبهام الذي لو قدرت ما قدرت تفسيره لم تجد له من فضيلة البيان ما تجد له مع الإبهام)(٢) ، فحرف عبر عن معنى لم نجده في التعبير عن نفس المعنى بالجمل ، ويرد الرسول على زعمها الكاذب الذى أفصح عنه الإبهام الكامن في الاسم الموصول ، بدليل مرئي لا تنكره العين فيقحمها بقوله(ﷺ)« فَوَ اللَّهِ، لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الغُرَابِ بِالْغُرَابِ» وهذه هي البلاغة النبوية ووجازة قوله(ﷺ) مع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / اللباس، باب/ ثياب الخضر، حديث رقم (٥٨٢٥)،(٧/ ١٤٨).

(٢) المثل السائر(٢/ ١٦٤).

وفاء المعنى، بجانب الإبهام عن طريق الكناية ، والذى جاء فى تعبير المرأة عن عجز زوجها فى معاشرتها فى صورة تهذيبية تتلائم وطبيعة المجتمع الإسلامي من حب الستر، فشبهته عند المعاشرة بهدبة الثوب وهى كناية عن عدم الانتصاب ، وأجابها النبي (ﷺ) بقوله: (لَمْ تَصْلُحِي لَهُ حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عُسَيْلَتِكِ) وهو جواب كنائي فى غاية الستر، وهو كناية عن الجماع ، وبذلك أفصحت الكناية مع ما فيها من الإبهام عن المراد فى أسلوب أخلاقي رائع.

ومنه قوله(ﷺ):« إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ **مَا شِئْتَ**»[1] فالحديث الشريف من جوامع كلمه (ﷺ) ويبين لنا ما اجتمع عليه الأنبياء ، وهو يحمل معانى التهديد والوعيد لمن لا يستحى وأنه إذا فقد الإنسان حياءه فقد يفعل الفواحش كبيرها وصغيرها سراً وجهراً ، وأنَّ الانسان إذا لم يخف من لوم الناس وعتابهم فليفعل ما يريد حسناً كان أو قبيحاً والله مجازيه على ذلك، والأمر (فَاصْنَعْ) فيه تهديد وتخويف وتهويل كما يحمل معانى التوبيخ والتقريع لمن فعل هذا ، وكأنه مأمور بصنع هذا ؛ لأنه لا يتأتى منه إلا الشر ، وقد عبر بالاسم المبهم (ما) لأن فيه من الإبهام والمبالغة ما لا تجده في البيان ، فأفاد معنى التهويل والتبشيع من شأن ما يفعله هذا الذى فقد حياءه، وقد جاء الحديث بأوجز أسلوب ، وأوضح بيان ، فقد جاء مفعول(شئت)محذوفاً للتحقير والذم والتقدير(شئته)، والسر البلاغي هو تحريك الذهن وإثارة العقل.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كِتَابُ/ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ/حَدِيثِ الغَارِ ، حديث رقم(٣٤٨٤)،(٤/ ١٧٧).

وقد يأتي التعبير بالاسم الموصول ليظهر لنا عظم أخلاقه (ﷺ)وتعليمه لأمته الكياسة واللطف والنصح بالحكمة والموعظة الحسنة عندما يخفى اسم المذنب مراعاة لعدم التشهير به ، فيكون أدعى للاستجابة والامتثال ، وحتى يكون الحكم عاماً ليرتدع من يفعل مثل هذا ، فعدل عن أسلوب الأمر الصريح إلى الإبهام من خلال التعبير بالاسم الموصول الذى يكشف عن بلاغته (ﷺ) وحرصه على مراعاة شعور المخاطب وعدم فضحه ، ومن ذلك قوله (ﷺ):«**مَا بَالُ العَامِلِ** نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا.....»[1] فنراه يعبر بالاسم الموصول لعنايته بحسن التهيؤ لمعاني القول وللحد من انتشار المخالفات الشرعية حيث جاء الحديث في ابن اللُّتبِية، وقد استعمله النبي الكريم على صدقات بنى سليم ، فلما جاء يحاسبه قال هذا مالكم ، وهذا هدية فخطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال هذا الحديث ، ولم يصرح(ﷺ) باسم المذنب وعدل عن التصريح باسمه للتعبير باسم الموصول فى(**مَا بَالُ العَامِلِ**) تحاشياً للتشهير به ، ورجاءً لاستقامته في ثوب من اللين واللطف ليس فيه إفشاء اسمه وفضيحته، فحقق الإبهام بالموصول ما لم يتحقق بالتصريح ، على الرغم من شدة غضبه(ﷺ) واعتراضه على فعله لم يصرح باسمه ولجأ لأسلوب يخفى اسمه ، فنرى الاستفهام في(فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا) يحمل معانى الإنكار والتوبيخ ، ولكن ساعد إبهام الفاعل في إبراز الرسالة المحمدية وعرضه للأمر في ثوب من اللين والرفق .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كِتَابُ/ الأحكام، بَابُ/هدايا العمال ، حديث رقم (٧١٧٤)،(٧٠/٩).

المبحث الثالث

البيان بالإبهام عن طريق الحذف

تعد ظاهرة الحذف في بنية التراكيب اللغوية من أدبيات اللغة ، وقد يعمد المتكلم أحياناً إلى الحذف ليحدث نوعاً من الإبهام المراد لدى المتلقي ويكون الإبهام حينئذ عين البيان ، وذلك لأن المقام يقتضيه ؛ ولأن الذكر لا يستطيع أن يفي بحق المعنى المراد ، ويؤثر في المواضع التي بها التعجب والتهويل على النفوس ، وأن وصف المحذوف لا يتناهى، فجعل الحذف دليلاً على ضيق الكلام عن وصف المعنى، وتركت النفوس تقدر ما شاءته ولا تبلغ مع ذلك كله ما هناك.

ويشير الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى قيمة الحذف ودورها في البيان:(فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تبن)[1] .

ومن مزاياه المتفردة أنه بمثابة وسيلة تحفيزية إشارية تشويقية للمتلقي اليقظ لتنمية الإيجابية لديه تجاه ما يقرأ أو يسمع، وأنه مسألة تخضع لاجتهاد المستمع وفق فهمه للنص الذي تلقاه ، وليس كل حذف يتولد منه إبهام ، فقد يحذف المسند أو المسند إليه أو غيرهما وليس في الكلام إبهام ؛ لأن ما حذف معلوم من الكلام لوجود قرينة دالة عليه.

وتتعدد صور الحذف التي يتولد من حذفها بيان عن المقصود:

---

(١) دلائل الإعجاز: ص(١٤٦) .

أولاً : البيان بالإبهام عن طريق حذف المسند إليه في الفعل المبنى للمجهول

ومن الحذف الذي يحدث إبهاماً واقتضاه المقام حذف المسند إليه عندما يكون المتكلم جاهلاً به ، كقول القائل : سُرق مالى بالبناء للمجهول ولا شك أن حذف المسند إليه هنا قد أحدث إبهاماً لدى المتلقي ، ولكن هذا الإبهام اقتضاه مقام الجهل بالفاعل .

أو يكون الذي اقتضاه الخوف من الفاعل: كقولنا: قُتِلَ الرجل إذا كنا نعرف القاتل لكنَّا نخاف على أنفسنا منه، ومن ثمَّ أخرج مخرج المبهم [(١)].

وأسلوب الحديث الشريف يعمل عملاً حياً يساعد نفس السامع على تلقى حقيقة المشهد بمعناه العميق ، ويدرك خياله وذهنه مالم تدركه حواسه ، ويبرع في تصوير المشهد بدقائقه وخفاياه ، وإبراز شدته وهوله في المواقف التي تتطلب ذلك.

ومما جاء فيه حذف الفاعل في الفعل المبنى للمجهول قول النَّبِي (ﷺ) « **يُؤْتَى** بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، **فَيُلْقَى فِي النَّارِ**، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ »[(٢)]

جاء الحديث الشريف لبيان تغليظ عقوبة من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيخالف قوله فعله ، وقد جاء البيان بالإبهام من خلال حذف

---

(١) بحث بعنوان(البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير طرقه وبلاغته) اعداد/ الدكتور لطفي خالد الجوهري ، ص(١٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب / الزهد ، باب / عُقُوبَةُ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَفْعَلُهُ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَفْعَلُهُ ، رقم (٢٩٨٩) (٤/ ٢٢٩٠).

الفاعل للفعلين(يُؤْتَى، يُلْقَى) ويوحى بناء الفعل للمجهول بالإكراه على الفعل ، وكل كريه للنفس يساق إليه سوقاً ؛ ولأنه مشهد من مشاهد يوم القيامة البعيدة عن الملموس المادي، فهو يمثل المشهد بخفاياه ودقائقه، ويعمل علي إبراز فخامته ورهبته ، فحذف الفاعل، وانْصَبَّ الاهتمام على إبراز الحدث بهوله وبشاعة المشهد الذى تقشعر منه الأبدان ، وعدم ذكر الفاعل يؤكد على هول الموقف وشدته ؛ كما أن توقع الخطر مع عدم معرفة مصدره أشد وقعاً في النفس وتجعل العقل يذهب في تصور الفاعل كل مذهب ، وجاء الفعل بصيغة المضارع المبنى للمجهول مع أنه أمر مستقبلي مبالغة في استحضار الصورة ، وكأنها أحداث تجرى أمامنا وليفيد تجدد المعنى مرة بعد مرة ، فينبعث في النفس الخوف من سوء عاقبة هذا العمل، ونرى أن الفعلين(**تَنْدَلِقُ** ، **يدور**) قد بنيا للمعلوم للإشارة إلى حصولها منه ، فاندلاق الأمعاء أثر انفجار الحاجز ، والدوران أثر الصدمة يحدث تلقائياً عند المباغتة بما يخرج منه ، ويعاضد هذا الحذف الصورة التي جاء عليها هذا العقاب ، فتتجلى عبقرية الرسول(ﷺ) فى تصويره لهذه العقوبة في أبشع صورة حيث تخرج أمعاء هذا الرجل من بطنه ويدور كما يدور الحمار في الرحى ومعنى(تَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ) أي تنصب أمعاؤه من جوفه وتخرج من دبره ، والاندلاق : الخروج بسرعة[1]، وقد عكست اللفظة هول المشهد وشدته، وبيان أن الخروج كان في قوة وتتابع وسرعة ، فضلاً عن نقله(ﷺ) الصورة في سرعة ووجازة من خلال استخدام صورة الحمار وهو يدور دوران يوحى بامتداد العذاب ، وخاصة أنه في النار، فضلاً عن فضيحته بين الناس فالكل يراه ؛ فهو يدور ويمر على الجميع

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري(١٥/ ١٦٦).

بخلاف الثابت في مكانه ، واستخدام الحمار كمشبه به غاية البلاغة، فهو معروف بالغباء والبلادة ، وهو الشقي المعذب الذى لا يستطيع أن يخرج إلا إذا أخرجه صاحبه ، وتعلق الجار والمجرور (بِالرَّحَى) بالفعل (يدور) تزيد الصورة بشاعة والموقف هولاً ، كما أن فيه بياناً لشدة الألم لهذا الشقي فكان جزاؤه من جنس عمله فيتدلى جوفه الفارغ من دبره للخلف صورة دائرية ، عافانا الله جميعاً.

ومنه ما روى عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) **قَالَ: «إِذَا أُقْعِدَ** المُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ **أُتِيَ،** ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ) [(١)][(٢)]

فالحديث الشريف يذكر لنا فتنة القبر عندما يدفن الميت وينصرف أهله فيسأل من ربه؟ ، وما دينه ، وما رسوله ؟ وهى من الأمور الغيبية ؛ لذا جاء الفعلان المبنيان للمجهول (أُقْعِدَ، أُتِيَ) فحذف الفاعل فيهما إبهام للفاعل ، ولكن الحذف بيَّن عِظم الموقف ورهبته فالغرض ليس معرفة من قام بإقعاده والإتيان به من الملائكة ، ولكن الغرض بيان صعوبة الموقف ، وأنه موقف فاصل في تحديد أي الطريقين يسلك؟ ، ولكن المؤمن ينجو بشهادة التوحيد ، وهو القول الثابت بالحجة لديه وقد تمكن من قلبه وصدقه فعله ، وهذا هو التثبيت على طريق الحق الذى يثبت الله به المؤمنين، وبداية النجاة ، وكيف تكون عاقبة المؤمن من غيره ، وزاد الحذف للفاعل

(١) سورة إبراهيم: من الآية رقم(٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / الجَنَائِزِ، باب / مَا جَاءَ فِي عَذَابِ القَبْرِ، حديث رقم (١٣٦٩) ، (٢/٧١).

الموقف عظمة وفخامة وشدة تجعل المتلقي يتشوق لمعرفة بقية المشهد الذى قد أبهم فاعله ، وقد ذهب ذهنه في تخيله كل مذهب.

ومنه ما رواه أَبِو سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللَّـهِ (ﷺ) قَالَ: « إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ **حُبِسُوا** بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى **إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ** لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»[1]

فالحديث الشريف يتحدث عن موقف عظيم وخطير وهو الظلم ، وأمر بوجوب الخلاص من حقوق العباد في الدنيا قبل الآخرة ، وجاء ليحذر من ارتكاب المظالم والتعدي على حقوق الآخرين سواء كانت مالية أو بدنية أو أخلاقية ؛ لأن المظلوم يأخذ من حسنات ظالمه يوم القيامة ، حتى يستوفي حقّه منه ، ويستهل البيان النبوى بـ (إذا) وهى من أدوات الشرط التي تفيد تحقيق الأمر ؛ ولأن الأمر عظيم ، وليس المراد معرفة الفاعل جاءت الأفعال (حُبِسُوا ، نُقُّوا وَهُذِّبُوا ، **أُذِنَ**) مبنية للمجهول لقصد الإبهام وحتى لا ينصرف ذهن السامع إلى الفاعل ؛ ولأن المهم هو الحدث نفسه ، فالحذف أحدث إبهاماً أظهر خطورة الموقف، كما جاءت الأفعال بصيغة الماضي للتعبير عن المستقبل فهو لم يحدث بعد، وليدل على القطع بتحقق وقوعه فهو أمر لا شك فيه ؛ ولإحداث صورة واقعية ، ومشهد حسى حتى يتوجه انتباه المخاطب إلى الفعل نلاحظ ترتيب الأفعال بصورة دقيقة حيث جاء الفعل(حبسوا) والذى يعنى منعهم من دخول الجنة فحبسهم كانت لمظالم بينهم ، ولا يأذن لهم بدخول الجنة إلا بعد التنقية والتهذيب ، لذا وليه الفعلان (نُقُّوا وَهُذِّبُوا) وما يحملانه من معانى التطهير والخلاص والمعالجة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / المَظَالِمِ وَالغَصْبِ ، باب / قصاص المظالم ، رقم (٢٤٤٠) (٣/ ١٢٨).

ثم يختم بالفعل (أذن) وهو الإذن بالسعادة الدائمة والنعيم المقيم رزقنا الله إياها ، وهنا يزداد التأثير في نفوس المخاطبين ، وجعل الأمر أهول وأفخم ، ومراعاة المقام فهو مقام الترهيب من الظلم والترغيب في البعد عنه.

ثانياً: البيان بالإبهام عن طريق حذف جملة جواب الشرط

والإيجاز ليس بمحمود ولا بمختار في كل المواضع ، وقد حرص النبي (ﷺ) على إيضاح المعاني بأقل ما يكون من اللفظ وهو الإيجاز المحمود، ولما كانت مهمة الإبلاغ لا تتم إلا بالإيجاز فقد كان النبي (ﷺ) يوجز كلامه بالحذف أو الاختصار ، وقد يأتي الإبهام بالحذف لأن الذكر والإفصاح لا يفي بحق المعنى ، لعظمة هذا المعنى المراد، وحتى يقع من النفس موقعاً حذف ، ومن ذلك : قولنا : لو رأيت الجندي وهو يقهر العدو ، أو لو رأيت الشيخ وهو يشرح، فهاتين العبارتين حذف جواب الشرط فيها ليحدث نوعاً من الإبهام الذي يتضمن إعجاباً وإعظاماً لما رأيته ، وليدع الخيال يذهب في الجواب كل مذهب(١).

وقد جاء في السنة النبوية هذا النوع من الحذف وهو حذف جواب الشرط، والذى تولد منه غاية البيان ومنه:

ما روى عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ (ﷺ) ، قَالَتْ: كَانَ النَّاسُ يَنْتَابُونَ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَالعَوَالِيِّ، فَيَأْتُونَ فِي الغُبَارِ يُصِيبُهُمُ الغُبَارُ وَالعَرَقُ، فَيَخْرُجُ مِنْهُمُ العَرَقُ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) إِنْسَانٌ مِنْهُمْ وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ النَّبِي(ﷺ) : « **لَوْ أَنَّكُمْ تَطَهَّرْتُمْ لِيَوْمِكُمْ هَذَا**»(٢).

(١) الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز" دراسة بلاغية ، د/ مختار عطية ، ص(٣٦٥) دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب/ الجمعة، باب / من أين تؤتى الجمعة وعلى من تجب ، حديث رقم (٩٠٢)، (٦/٢).

جاء الحديث الشريف ليبين أهمية النظافة وبيان مكانة يوم الجمعة ، وأنه يوم عظيم ، وفيه يجتمع المسلمون للصلاة ، ويحث النبي الأمين فيه على التطهر والتطيب وتحسين المظهر في هذا اليوم خاصة من يأتي للصلاة ، ومن المعلوم أن الشرط يرتبط بجوابه ، ويفتقر إليه ، فالجواب متعلق بالشرط تعلق الخبر بالمبتدأ ، والمتحدث بالجملة الشرطية عندما ينطق بالشرط يترقب المخاطب الجواب وينتظره ؛ لأنه هو المتمم لمعنى الجملة ، ويظُّل مترقباً حتى يقف عليه ، فإذا حذف وقع في حيرة وإبهام،(١) وقد حذف جواب الشرط من الحديث الشريف ، والتقدير (لكان حسنا) لبيان مدى الحسن والأثر الطيب الذى سوف يترتب علي هذا التطهر من اجتناب أذى المسلم بكل طريق ، والتنظيف لمجالسة أهل الخير ، فكان للإبهام عن طريق حذف جواب الشرط دور في بيان هذا الحسن وعظم فائدته وليذهب في تقدير حسنه وعظمه كل مذهب ، وخاصة في هذا اليوم العظيم ، والتي جاء اسم الاشارة (هذا) لغرض تعظيمه وبيان مدى قربه من القلوب.

ومنه ما روى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سِرْنَا مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) لَيْلَةً، فَقَالَ: بَعْضُ القَوْمِ: **لَوْ عَرَّسْتَ** بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عَنِ الصَّلاَةِ»(٢)

يوضح لنا الحديث الشريف حكم الآذان بعد ذهاب وقت الصلاة ، كما فيه جواز الالتماس من السادة فيما يتعلق بمصالحهم الدينية بل الدنيوية أيضا مما فيه الخير ، والتعريس، هو: نزول القوم في السفر آخر الليل

(١) التشويق في الحديث النبوي طرقة وأغراضه، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، ص(٨٨) مطبعة الحسين الإسلامية ، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب / مواقيت الصلاة، باب / الآذان بعد ذهاب الوقت ، حديث رقم (٥٩٥)، (١٢٢/١).

للاستراحة [١] ، فالصحابة – رضوان الله عليهم– يطلبون من النبي الأمين أن ينزل بهم في مكان ليستريحوا من عناء السفر، فجاء قولهم في صورة الشرط بـ(لو) وقد حذف جواب الشرط ، والتقدير (لكان أسهل علينا) أو (لكان أفضل لنا) والحذف فيه شيء من الابهام وعدم تمام الفائدة ، ولكنه في الحديث كان لبيان مدى أهمية هذا النزول في نفوس الصحابة ، ففيه راحة لهم من عناء السفر لا يقدر على وصفها ، وهذا دليل على أنهم قد وصلوا حداً كبيراً من التعب والعناء، ويكشف عن تأدب الصحابة مع رسول الله في الطلب ، فكان طلبهم فيه إبهام وعدم تصريح ، ولكن بلاغة حذف جواب الشرط وفت المعنى وبينته.

ومنه ما روى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيّ (ﷺ) لِعبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا» فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): «**لَوْ رَاجَعْتِهِ**»[٢]، فالحديث يضع السامع أمام قضية اجتماعية لزوجين أحدهما محب مغرم ، والآخر كاره مبغض ، والحكم هو النبي الأمين ، ويأتي رأيه (ﷺ) ليس فيه إجبار للزوجة على مراجعة زوجها لها وقد أعطاها الله هذا الحق ، وذلك من خلال قوله: «لَوْ رَاجَعْتِهِ» فجاء الشرط محذوف الجواب ، والتقدير (لكان أفضل) وهذا حرص منه (ﷺ) على استمرار الحياة الزوجية مع عدم الإكراه على ذلك ، وحذف جواب الشرط في حمل (لو) على معنى الشرط ينطوى على معانى النفع والثمرة الطيبة لو تحققت المراجعة وجمع بين الزوجين ، فالحذف

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري(٥/ ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / الطلاق ، باب / شفاعة النبى في زوج بريرة ، حديث رقم(٥٢٨٣)، (٤٨/٧).

لجواب الشرط فيه طي لأهمية المراجعة لو ذكر صراحة لم يظهر بهذا المعنى ، مع مراعاة ترك الحرية المطلقة للزوجة.

ثالثاً: البيان بالإبهام عن طريق حذف التمييز:

ومن الإبهام البلاغي ما جاء عن طريق حذف التمييز، ما رواه أبو جُهَيْمٍ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): « **لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ، لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ، مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ**»[1] يبين الحديث الشريف عقوبة المار عمداً بين يدى المصلى ، وبيان شدة هذه العقوبة المبهمة الذى لو علمها المار لفضلَّ أن ينتظر مدة طويلة أبهمت أيضاً، وقد افتتح الحديث بأسلوب الشرط بـ(لو) وإذا سمع المخاطب الشرط كان شغوفاً لسماع جوابه ، وقد حذف التمييز لكلمة (أربعين) فلا يدرى يوماً أم شهراً أم سنة وذلك لغرض التفخيم والتعظيم من شأن هذا الأمر وخطورته، والعدد لفظ مبهم، أي: لا يوضح بنفسه المراد منه، ولا يمكن أن يدرك النوع المقصود من هذا العدد، إلا بالتمييز فلو قلنا: ثلاثة كتب، أو أربعة أيام، أو خمسة شهور ... أو ... ، لزال الإبهام وانكشف الغموض عن مدلول العدد، وصار المراد واضحاً؛ بفضل الكلمة التي جاءت؛ فبينت نوعه، وميزته من غيره، أي: أنها عينت المعدود بعد أن كان مبهما مجهولا[2] لذلك حذف تمييز العدد (أربعين) للدلالة على خطورة هذا الفعل وبالتالي عظم عقوبته التي لا يتصورها بشر ويقول صاحب المنار (وإنما أبهم النبي (ﷺ) هذه العقوبة في قوله: "ماذا عليه " للدلالة على أن عقوبة المرور أمام المصلّي عقوبة عظيمة لا يمكن أن يتصورها العقل البشري

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كِتَابُ /الصلاة ، بَابُ/ مَنْعِ المَارِّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي ، حديث رقم (٢٦١) ، (١/ ٣٦٣).

(٢) النحو الوافي(٤/ ٥٢٥).

ولا يعلم مداها إلاّ الله سبحانه)[١]، والأصل أن الأفعال الماضية توضع للدلالة على وقوع الحدث في الزمن الماضي ، والمضارعة توضع للدلالة على وقوع الحدث في الحاضر والمستقبل ، وإذا عدل المتكلم بإحداهما لتحل محل الأخرى ؛ فإنها تستدعى أوجهاً بلاغية أخرى ، وفى هذا الحديث نجد أن الرسول (ﷺ) وضع المضارع" يعلم" موضع الماضي "علم" عدولاً بالكلام عن سنته الظاهرة ليفيد استمرار العلم ثم أطلق مفعول "يعلم" وهو (ما) ولم يبين العقوبة ماهي؟ ليفيد ضرباً من المبالغة ، وأنه لا يدخل تحت الوصف والحصر والإطلاق ، وبذلك تعاضد أسلوب الشرط المثير للتشويق مع الإبهام بحذف التمييز مع التعبير بحرف الجر (على) الذى يفيد بيان ثقل هذا الذنب وعظمه في بيان خطورة المرور بين يدى المصلى وشدة العقوبة المترتبة على ذلك.

ومنه ما رواه أبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ **أَرْبَعُونَ**» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ»[٢].

يخبرنا الصحابي الجليل أنه سمع من النبي مدة ما بين النفختين : نفخة الصعق ، ونفخة النشور والبعث وهى أربعون ، وباقي الحديث يدل على عدم تحديد أهي أربعون يوماً أم شهراً أم سنة ؟ لأنه لم يسمعها من النبي، وحذف التمييز في هذا المقام ، ولم يأت تمييز يكشف عنه لغرض التفخيم والتهويل لمشهد من مشاهد يوم القيامة ، وصورة من صور فناء

(١) منار القاري(٢/٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كِتَابُ / الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ / مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، حديث رقم (٢٩٥٥) ، (٤/ ٢٢٧٠).

الدنيا ، وإبهام المدة فيه بيان لهول الموقف وعظمه ، ويذهب العقل في تحديد المدة كل مذهب ، فيوقع الرهبة في قلب صاحبه ، وهذا أدعى للعودة إلى الطريق المستقيم فالساعة تأتى بغتة ، ومراحلها مبهمة المدة ، ولا يعلم كنهها إلا الله سبحانه وتعالى ، وبهذا جاء الإبهام قمة في البيان وتصوير الموقف وما فيه من رهبة ومباغتة تدعو إلى سرعة التوبة في الدنيا قبل الآخرة .

المبحث الرابع

البيان بالإبهام عن طريق اتحاد طرفي الجملة الشرطية

معنى الشَّرْط : هو وُقُوع الشَّيْء لوُقُوع غَيره[١]، وهو ترتيب أمر على أمر آخر، والأصل أن يكون جواب الشرط مفيداً لمعنى جديد مترتب على جملة الشرط ، ولا يحصل ذلك باتحاد طرفي(الشرط وجواب الشرط) لأن اتحاد الطرفين سيؤدي إلى الإبهام ، وعدم إتمام الفائدة ، ولذا يقول السيوطي:(وشرط الجواب الإفادة فلا يكون بما لا يفيد – كخبر المبتدأ – فلا يجوز:(إن يقم زيد يقم)[٢] ، والمتأمل في الأساليب العربية يجد أنه قد يتحد الطرفان فيفيد ذلك نوعاً من المبالغة ، وقد تأتى في شأن عظيم لتفخيمه أو شأن حقير لتصوير بشاعته ، وعلى هذا فاتفاق فعلى الشرط والجواب لفظاً يوحى ظاهرياً بتشابه المعنى ، وهو حقيقة يفيد معنى متغايراً ، ويقول السيوطي(إذا اتحد لفظ المبتدأ والخبر، والشرط ، والجزاء علم منهما المبالغة إما في التعظيم وإما في التحقير)[٣].

ومما جاء باتحاد طرفي الجملة الشرطية (الشرط و الجزاء) في الحديث الشريف :

ما روى عن عمر بن الخطاب(ﷺ) أنه قال : قال رسول الله(ﷺ): « **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى**

(١) المقتضب لأبى العباس، بالمبرد، ت/محمد عبد الخالق عظيمة، ، عالم الكتب، بيروت(٢/ ٤٦).

(٢) همع الهوامع شرح جمع الجوامع لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ، تحقيق د / عبد الحميد هنداوي (٢/٥٥٤) المكتبة الوقفية .

(٣) عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث، لجلال الدين السيوطي، ت/ حسن موسى الشاعر، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، (٣/١٢٠).

اللهِ وَرَسُولِه فَهِجْرَتُهُ إِلى اللهِ وَرَسُولِه، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا، أَوامْرأَة يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1]

فالحديث الشريف يؤكد على أن الْأَعْمَالَ بِحَسَبِ النِّيَّاتِ، وأن لكل عمل نية يجازى عليها الإنسان مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ؛ لذا صدر بأسلوب القصر بـ(إنما) وكأن الأعمال متوقف جزاؤها على النية ، ويؤكد ذلك تكرار أسلوب القصر في قوله:(**وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**) ثم ذكر لنا الحديث الشريف بَعْدَ ذَلِكَ مِثَالًا مِنْ أَمْثَالِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تتحد في الشكل ، ولكن يتوقف فسادها وصلاحها على النية ، وهى الهجرة فهي ليست بدرجة واحدة في الجزاء عند الله تعالى ، فهناك هجرة يقصد منها خدمة الدين ورفع كلمة الحق ، وهى الهجرة التي يستحق عليها العبد الثواب والأجر ؛ لأنه منهج قويم عندما سار فيه الانسان كتب لنفسه به السعادة ، فحصل له ما نواه من هجرته ؛ لذا اقْتَصَرَ فِي جَوَابِ هَذَا الشَّرْطِ في هذه الهجرة عَلَى إِعَادَة الشرط بِلَفْظِهِ؛ فالمراد بقوله (ﷺ): (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله) أي هجرة عظيمة لا يقدر قدرها ولا يعرف كنهها [2]، واتِّحَادُ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ في الحديث الشريف جاء لِقَصْدِ التَّعْظِيمِ والتفخيم من أمر هذه الهجرة الخالصة لله تعالى والتي لا يشوبها غرض دنيوي، وما أفادت هذا المعنى إلا من خلال الإبهام الحاصل عن طريق اتحاد الطرفين، كما أن هذا الاتحاد له دور في ترابط نص الحديث ، وبيان

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب/ الطلاق ، باب/ فيما عنى به الطلاق والنيات ، رقم(٢٢٠١) ، (٢ / ٢٦٢) المكتبة العصرية ، بيروت .

(٢) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للإمام الحافظ / أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري(٥ / ٣٤) خرج أحاديثه / عصام الصبابطي ، دار الحديث ، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

لعظم هذا الجزاء فهو عظيم لا حد له ولا مثيل ، ويدع النفس تذهب كل مذهب لمعرفة هذا الجزاء العظيم .

وعلى الجانب الآخر يبين لنا الحديث هجرة أخرى يكون غرضها دنيوياً ، فلم يكن الغرض منها خدمة الدين ولم تكن خالصة لله تعالى، فسوف يجازى صاحبها على نيته ، فجاء نص الحديث بقوله:(فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) ولم يأت (**وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا، أَو امْرأَة يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها**) وذلك تَحْقِيراً وَاسْتِهَانَة بتلك الهجرة التي طلب فيها الدنيا ؛ ولذلك لَمْ يُذْكَرْ بِلَفْظِهِ بخلاف الهجرة السابقة لأنه ليس أهلاً لأن يُذكر، (لم ينص عليهما احتقاراً لهما، وإعراضاً عن ذكرهما؛ فلأنهما حقيران؛ أي: الدنيا، والزوجة، ونية الهجرة، التي هي من أفضل الأعمال – لإرادة الدنيا والمرأة؛ نية منحطة سافلة، قال: (فهجرته إلي ما هاجر إليه) فلم يذكر ذلك احتقاراً، بل كنى عنه) [(١)]، ويؤكد لنا هذا الجانب الآخر من الحديث أن الهجرة العظيمة هى الهجرة إلى الله ورسوله لا الهجرة إلى الدنيا، كما جاء لفظ (دنيا) للعموم ولبيان أنَ الْهِجْرَةُ لِلأُمُورِ الدنيوية متعددة لَا تَنْحَصِر، وقد عضد تكرار الضمير الذى يعود على المهاجر في الحديث هذا الاتحاد في ترابط النص وبيان المراد منه ، والذى جاء في (**نَوَى، هِجْرَتُهُ ، يُصِيْبُهَا، يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ ، إِلَيْهِ، والضميران العائدان إلى اللهِ وَرَسُوله**) حيث ساعدت على إظهار معناه .

(١) شرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض ، ط ١٤٢٦ هـ ، (١/ ٢٠).

ومنه ما رواه أبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) « **مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي**»[1].

إن رؤية الرسول الكريم في المنام هى أمر عظيم لا تتفق لأى شخص عادى ، بل تكون رؤيا صادقة عند أهل الإيمان الخالص ، والعلة أن الشيطان لا يتمثل في شخصه (ﷺ) ، ونلاحظ أن الحديث الشريف قد جاء في صورة الشرط ، مصدراً بأداة الشرط

(من) وقد اتحدت جملة الشرط مع جوابه(**مَنْ رَآنِي، فَقَدْ رَآنِي**) واتحاد الشرط والجزاء في ظاهره إبهام ، ولكنه أفاد وأبان عن الزيادة في التعظيم والتفخيم من شأن هذه الرؤية الصادقة وكمالها وبعدها عن الكذب والريب ، ويعضد ذلك التركيب الذى ورد عليه الجواب (الفاء + قد+ الفعل الماضي) وهذا تركيب فيه تأكيد على صدق هذه الرؤية ، ثم يأتي التعليل المصدر بـ(إنَّ) ليؤكد على بعد هذه الرؤيا عن كونها من الشيطان ، والنفي بـ(لا) يفيد امتداد النفي عن عجز الشيطان في التمثل بصورته(ﷺ)، ويقول الإمام ابن حجر العسقلاني ت(٨٥٢هـ) في شرح الحديث (اتحد في هذا الخبر الشرط والجزاء فدل على التناهي في المبالغة أي من رآني فقد رأى حقيقتي على كمالها بغير شبهة ولا ارتياب فيما رأى بل هي رؤيا كاملة)[2]،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب / الرؤيا، بَابُ/ قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، حديث رقم (٢٢٦٦)،(٤/ ١٧٧٥).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٣٨٩).

ومنه أيضاً ما روى عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رسول الله (ﷺ):«إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ، فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، **فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ**» [(١)]

فالناظر يجد أن الشرط والجزاء قد اتحدا مرتين ، الأولى في قوله (ﷺ) :(فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ) ، والثانية في قوله (ﷺ) (وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ)، ويشير هذا إلى مدى كرامة المتقين وعظم منزلتهم عند الله تعالى ، فالاتحاد ظاهره إبهام ولكنه بيَّن لنا الجزاء العظيم للمخلصين الطائعين ، فهو لا يوصف ولا يحاط به ، ولا يفي الذكر لوصفه، وهو تبشير لهم ، كما يشير الاتحاد في الثاني إلى هوان العصاة وشناعة منزلتهم عند الله تعالى ، فعذابهم عظيم وعقابهم أليم لا يحيط به وصف لصعوبته وشدته ، وهو يُعد انذار شديد لهم جراء ما اقترفوه من معاصي في الدنيا ، وما ظهرت كل هذه المعاني إلا من خلال بلاغته وعبقريته(ﷺ) في التعبير عن المعاني ومناسبة أحوال المخاطبين ، ويقول الإمام الطيبي(ت٧٤٣هـ):(فمن كان من أهل الجنة فيبشر بما لا يكتنه كنهه ، ويفوز بما لا يقدر قدره وإن كان من أهل النار بالعكس ، لأن هذا المنزل طليعة تباشير السعادة الكبرى ، ومقدمة تباريح الشقاوة العظمى ، لأن الشرط والجزاء إذا اتحدا دلا على الفخامة) [(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم(١٠٧٢)، (٣ / ٣٧٥) .

(٢) شرح الطيبى على مشكاة المصابيح المسمى (الكاشف عن حقائق السنن) للإمام / شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبى (١ / ٣٠٨) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

المبحث الخامس

البيان بالإبهام عن طريق الكناية

تعد الكناية من طرق التلميح والاختصار، والتي يخفى مسلكها ويدق لما فيها من عرض المعاني بطرق غير مباشرة مما يعطى الكلام عمقاً وبراعة وجمالاً ، وهذا لا يتحقق بالطريق المباشر ، وعندما يعمد المتكلم إلى إبهام أمر يكنى عنه أو يعرض به ، وقد يعمد المتكلم إلى بعض الألفاظ التي فيها إبهام على السامع لتجنب التصريح باسمه المباشر لغرض يرمى إليه ، وذلك مثل لفظ (بعض) فيكنى به عن النفس أو شخص معين لهدف لا يتحقق إلا بهذا الإبهام ، ومن ذلك قول الله تعالى:﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] فقد جاء لفظ (بعض) في الآية المباركة ويُراد بها سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد(ﷺ) وذلك تفخيماً لشأنه وإعلاءً لمكانته ؛ لأنه المفضل على الرسل حيث آتاه الله الآيات المباركات القرآن الكريم ، ويقول الزمخشري (وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس)[2].

وقد تميزت كناياته(ﷺ) بأنها نمط مختلف يلجأ إليه كلما أراد أن يحاط تعبيره بهالة من الفخامة والبلاغة ، ومن الأحاديث النبوية التي جاءت على ذلك :

ما جاء عنْ أنسٍ (رضي الله عنه): « أن النبي(ﷺ) كَانَ عِنْدَ **بَعْضِ نِسَائِهِ**، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَصْعَةٍ فِيهَا طَعَام، فَضَرَبَتْ بِيَدِهَا فَكَسَرَتِ

(١) سورة البقرة: جزء من آيه رقم(٢٥٣).
(٢) الكشاف(١/ ٢٩٧).

الْقَصْعَةَ فَضَمَّهَا، وَجَعَلَ فِيهَا الطَّعَامَ وَقَالَ: كُلُوا: وَحَبَسَ الرَّسُولَ وَالقَصْعَةَ حَتَّى فَرَغُوا، فَدَفَعَ القَصْعَةَ الصَّحِيحَةَ وَحَبَسَ الْمَكْسُورَةَ »[1] فالحديث الشريف يبين لنا مدى حكمته(ﷺ) ومراعاته الغيرة بين الضرائر، عندما كان في بيت السيدة عائشة وأرسلت إليه السيدة زينب بنت جحش(رضي الله عنها) قصعة فيها طعام فكسرته ومع ذلك لم يعنفها الرسول الكريم ، فهذا من دلائل رحمته ورأفته(ﷺ) ، فجاء بقوله:(بَعْضِ نِسَائِهِ) ويراد السيدة عائشة (رضي الله عنها) ولفظ (بعض) من الظروف المبهمة ، وجاء لتفخيم شأنها وتعظيمها (رضي الله عنها) ، ولم يكن هذا التعظيم المستفاد من الإبهام لو ذكر باسمها الصريح ، فكنى عنها رفعة لشأنها وشرفها وعظم مكانتها ، وتؤكد أيضاً على هذا المقصد العاطفي من الرسول(ﷺ) على تفخيم شأنها ، وهذه الكناية قد بعثت في نفس السامعين تأثيراً متصاعداً لمعنى التعظيم ، ودل على ذلك أيضاً قوله:(غارت أمكم) في رواية أخرى، فلم يقل (عائشة) فهو خطاب عام لكل من تعرض لهذه القضية من المؤمنين وكأنه اعتذار لئلا يحمل فعلها على الذم ، ولكن يجرى على أنه من عادة الضرائر من الغيرة ، وكذلك قد وصف المرسلة بقوله:(إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ) ولم يذكر اسمها صراحة مراعياً الغيرة بين زوجاته والشفقة على السيدة عائشة وكسر غيرتها ، صلوات ربى وسلامه عليه معلم الإنسانية الخير رزقنا الله شفاعته يوم الدين، وعلى هذا نرى أن الحديث قد جاء الإبهام فيه عين البيان وتقرير معانى التعظيم والتفخيم ، فكان أفخم من التصريح به.

ومن وظائف الكناية أيضاً في الهدى النبوى عدم التصريح بالمكنى عنه تأدباً ، وإخفاء لما يخدش الحياء والهنّات ، فالعدول عن التصريح إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كِتَابُ / المظالم والغصب، باب/ إِذَا كَسَرَ قَصْعَةً أَوْ شَيْئًا لِغَيْرِهِ، رقم (٢٤٨١) ، (١٣٦/٣).

التلميح في مثل هذه المواقف من المقاصد الخلقية للحديث الشريف ، كما أن الكناية تشخص المعنى وتكثفه ، فإخفاء المعنى أفضل من الإفصاح عنه.

ومن الأحاديث التي جاءت بأسلوب الكناية للتحرز عن التصريح بما لا يحسن ذكره ما رواه أبو هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ: « إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، **فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ**»[1] والحديث الشريف ينهى المسلم عن غمس كفه في الإناء فور استيقاظه من نومه ؛ مخافة أن تكون قد تنجست ، ونرى تماسك أجزاء الحديث وترابطه من خلال أسلوب الشرط ، وقد استهل بأداة الشرط(إذا) التي تدل على اليقين والتحقق والتي تدل على وجوب الالتزام بالنهى الوارد بالحديث ، بالإضافة إلى التعليل المؤكد المصدر بـ(**إِنَّهُ**) وجاء الإبهام عن طريق الكناية المتمثلة في(أين باتت يده) فأفاد التحرز عن التصريح بما لا يحسن ذكره ، وهى كناية عن موصوف وهو الشيء المتنجس، فعدل عن التصريح به إلى الكناية لاستهجان واستقباح ذكر اللفظ صراحة للإشعار بمعنى النفرة به في نفس السامع ، فتحاشي النطق به وكنى عنه ، وأشير إلي مكانه بلفظ يدل عليه وهو(أين) ، وقد تعاضد المجاز مع الكناية ، فنرى البلاغة النبوية تظهر من خلال التعبير بلفظ(اليد) دون(الكف) مع أنه هو المستعمل في الغمس، عن طريق المجاز المرسل لعلاقة الكلية حيث أطلق الكل وأراد الجزء ؛ لغرض المبالغة في النجاسة التي تنال النائم فصور يده كلها وكأنها قد انغمست بأكملها في النجاسة، والمؤمن لا يرضى بالقليل من النجاسة ، فإذا سمع هذا المجاز دفعه إلى غسل يده فور استيقاظه ؛ حرصاً

(١) أخرجة مسلم في صحيحه ، كتاب / الطهارة ، بَابُ/ كَرَاهَةِ غَمْسِ الْمُتَوَضِّئِ وَغَيْرِهِ يَدَهُ الْمَشْكُوكَ فِي نَجَاسَتِهَا فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ غَسْلِهَا ثَلَاثًا، حديث رقم (٢٧٨)،(٢٣٣/١).

منه على التخلص مما علق بيده ، فأفادت المبالغة والتنفير من هذا اللفظ غير المصرح به.

ومنه ما رواه مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «**مَنْ كَشَفَ خِمَارَ امْرَأَةٍ وَنَظَرَ إِلَيْهَا** فَقَدْ وَجَبَ الصَّدَاقُ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا»[(١)]

فيشير الرسول الأمين على وجوب الصداق في حالة (كَشَفَ خِمَارَ امْرَأَةٍ وَالنَظَرَ إِلَيْهَا) والمراد بكشف الخمار هنا ليس الرؤية الشرعية ، وإنما هو كناية عن الدخول على المرأة ورؤية ما ستر من جسدها، وهذا يكون بعد الزواج الشرعي لأنه يوجب ذلك ، فنرى أن الرسول تحاشي اللفظ المباشر الذى يعبر عن رؤية الرجل شيئاً من جسد المرأة وخلوته بها ، فأبان عن المقصود بطريق غير مباشر ، فكان أولى وأنسب للمقام، وتأتى الأفعال في الحديث لتوحى باللفظ غير الصريح بأنه قال(كشف) فالرجل هو فاعل الكشف ، ثم يليها النظر وهذا لا يتحقق إلا وقت خلوه بالمرأة سواء دخل بها أم لم يدخل، فجاءت الإشارة إلى المطلوب من بعيد فكان في النفس أوقع وأحلى وأضفى على الأسلوب بهاءً وجمالاً.

ومنه ما روى عَنْ سَهْلِ بنِ سعْدٍ قَال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ):«مَنْ يَضْمَنْ لِي **مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ** أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[(٢)].

فالحديث الشريف يشير إلى أن النبي(ﷺ) يضمن الجنة، وهو ليس

---

(١) أخرجه الدار قطنى الحسن علي بن عمر البغدادي (المتوفى: ٣٨٥هـ) في سننه ، تحقيق: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم ، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان ، ط١، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م، كتاب /النكاح، باب / المهر ، حديث رقم (٣٨٢٤) ، (٤٧٣/٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر(١١/ ٣٠٩).

أي ضامن فهو الصادق الأمين لا يمكن الشك في وعده ، ولكن لمن؟ وهى أمل لكل مؤمن، وتأتى الإجابة الشافية في قوله:(مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بيْنَ لَحْيَيْهِ) وهو من التزم بأمرين: الأول منهما حفظ اللسان ، ولحييه: هما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما اللسان[1]، وعبر عنه بـ(بين لحييه) عن طريق الكناية ولم يعبر باللسان ؛ ليدعو السامع للتفكر وعمل الذهن وتأكيد على ضرورة معرفة أهمية هذا الحفظ ، فالشيء إذا جاء بعد تفكر كان في النفس أوقع ، ولماذا لا؟ واللسان هو منجاة المؤمن وهلاكه ، وبه تكون الكبائر، من أكل وشرب للحرام ، وغيبة ونميمة وشهادة زور وشرك والعياذ بالله تعالى ، وبه تكون حصائد الأشربة والأطعمة والألسنة ، فكان التعبير عنه بطريق الكناية إبهاماً أبان عن المقصود بأبين طريق وأرفعه من تعظيم وضرورة حفظه ، وقد بنى الحديث على الشرط بـ(من) لمزيد من الترابط ، وللدلالة على أن الخطاب عام لجميع المسلمين ، وهو لفظ مبهم أفاد منه الاستغناء عن العد والاحصاء لجميع الأفراد، كما في استخدامه دقة وبلاغة وفيه دعوة لكل عاقل للإسراع إلى هذا الفعل ، فهو لا يستخدم إلا مع العاقل، ثم يأتي الضمان الثاني لدخول الجنة الذى يجب على المؤمن المحافظة عليه ، وهو قوله(ﷺ):(وَمَا بيْنَ رِجْلَيْهِ) وهى كناية عن الفرج ؛ ولأنه ينصب به الشيطان حباله للمؤمن ليوقعه في المعصية استوجب أن يستقل بكونها ضماناً آخر لدخول الجنة، وينأي الأدب النبوي الرفيع عن أن يعبر عنه بلفظه ، وهذا تأكيد على وجوب ستره ، وضرورة تجنب كل من الرجل والمرأة لكل أنواع الزنى وضرورة التزامهما بالطهارة والعفة، فكانت الكناية أنسب للمقام وأبين للمراد، والإبهام فيها إشارة إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كِتَابُ /الرقاق، باب/ حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٤) ،(٨/ ١٠٠).

الترفع عن ذكرها ، وضرورة سترها عن كل حرام قولاً وفعلاً ، لأن دخول الجنة يتوقف على حفظها وجموح شهوتها مع حفظ اللسان ، ومن التأكيد على استمرار الحفظ وتجدده في كل وقت التعبير بالمضارع(يضمن) فضلاً عن التعبير بالاسم الموصول(ما) ليتكاتف الإبهام بالموصول والكناية في الكشف عن معانى عظيمة أرادها الرسول الكريم؛ فأفادت(ما)العموم والشمول في الحفظ لكل ما بين اللحيين والفخذين وجاء الظرف(بين) مكرراً للدلالة على أنهما على قدر واحد من ضرورة الحفظ ، ويأتي جواب الشرط (أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ) نتيجة للفعل السابق وهو الحفظ للفرج واللسان ، والفعل أضمن يحمل دلالات الخبر اليقين الذى ليس به شك ، بالإضافة للجار والمجرور(له) فاللام تشعر بالمنفعة العائدة على من قام بحفظ لسانه وفرجه ، و(الهاء) تزيد من الترابط والتلاحم بين الجمل، وبذلك أدت الكناية مع إبهامها دورها في التعبير عن المعنى في ثوب من الأدب والتهذيب ، والتأثير في المتلقي ، وتنبيهه على أنه من أعظم البلاء في الدنيا للمرء لسانه وفرجه فمن وقي شرهما وقي أعظم الشر.

ولما كان التهذيب بالألفاظ من مقاصد الكناية ، ومظهر من مظاهرها ، وهو المنهج التهذيبي الذى سار عليه القرآن ، فالإبهام الكائن فيها من خلال التعبير عن معنى بغير اللفظ الموضوع له في اللغة جاء في الحديث الشريف ذا وظيفة خلقية وإصلاحية، فعبر بأسلوب الكناية عما يخص المرأة ، والجماع ، وقضاء الحاجة ، وكل ما يلزم ستره ؛ لأن الحاجة إلى ستر قولها كالحاجة إلى ستر أفعالها ، وهناك أحاديث كثيرة تتحدث عن العلاقة بين الرجل وزوجته في ثوب من الأدب منها:

ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ(ﷺ)، فَقَالَ:« إِنَّ الآخَرَ **وَقَعَ عَلَى امْرَأَتِهِ فِي رَمَضَانَ**» [(١)]

فالحديث يدور حول رجل قد ارتكب ما حرم الله في نهار رمضان (وهو جماع الرجل زوجته) وقد اشتمل الحديث على كنايتين الأولى في قوله:(إِنَّ الآخَر) حيث كنى عن نفسه ولم يقل (أنا)، (وَكَأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ التَّجْرِيدِ، أَيْ جَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ شَخْصًا تَنْزِيهًا لِنَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْهَا بِمَا ذَكَرَهُ) وقد ورد معناه على الأرذل والأبعد، على الذم[(٢)]، كما فيه ستر لاسمه وعدم فضحه من باب الرفق وعدم التشهير ، والكناية الأخرى في قوله:(وَقَعَ عَلَى امْرَأَتِهِ) وهى كناية عن الجماع ، ولم يأت الحديث الشريف باللفظ الصريح له لما في هذا اللفظ من التنافي مع الحياء كما فيه إيحاء بمدى نكران الرجل لهذا الصنيع ، وإحساسه بالذنب ، فعزف عن اللفظ الصريح للتبرأ منه مما يوحى بتوبة السائل وندمه على فعلته، وأن هذا الفعل قد بلغ مبلغه من الهول والبشاعة ما يدعو إلى نكرانه عن طريق الإبهام والكناية ، والخطاب النبوي حافل بنماذج من الصور الكنائية التي تعبر عن المعنى بألفاظ متفردة بطابع التهذيب واللياقة بعيدة عن التصريح الذى يستنكر ويثير الخجل ، وفى الوقت ذاته تراعى حال المتكلم والمخاطب .

وتأتى الكناية في الحديث النبوي أيضاً لتؤدي وظيفة أخرى وهو الترهيب ، وذلك فيما رواه أبو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ) « إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ **أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ** يُقَالُ: لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ ...» [(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كِتَابُ /الصوم، باب /المجامع في رمضان، حديث رقم(١٩٣٧)، (٣/٣٢).

(٢) التحرير والتنوير(٥/ ٢٢٣)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري(١١/ ٣٥).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، كِتَابُ /الجنائز، باب / ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم (١٠٧١)، (٣/٣٧٥).

الحديث يصف لنا مشهداً من مشاهد القبر، وهو سؤال الملكين للمؤمن في القبر ويأتي التأكيد من خلال أسلوب الشرط بالحديث، وقد وصف الملكين بقوله:(مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ) والتعبير بلفظ(أَسْوَدَانِ) كناية عن قبح الصورة وبشاعة المنظر، و(أزرقان) كناية عن تحديد النظر وتقلبه وظهور بياضها[١]، وهى كناية عن شدة الغضب، واجتماع الوصفين السواد والزرقة بيان لهول الموقف ووحشته ، وقد زاد الطبراني:(أعينهما مثل قدور النحاس، وأنيابهما مثل صياصي البقر، وأصواتهما مثل الرعد)[٢] وهى زيادة في الهول والإنذار، فجاءت الكناية عن منظر الملكين وشدة غضبهما، وقد وفت المعنى بأفضل من الطريق المباشر، فلو قيل مبغوضان لم تصل الصورة بهذا الهول وهذا التعظيم من شدة الغضب ، فذكر المعنى مدعماً بدليله وبرهانه ، وقد عضد أيضاً الكناية في رسم الصورة المخيفة مجيئ لفظي (الْمُنْكَرُ، النَّكِير) على هاتين الصيغتين بمعنى مفعول من(نَكِر) ليدل على أن الميت لا يعرفهما ، ولم ير مثل صورتهما من قبل، وبهذا جاء بيان وإظهار الرهبة وشدة الموقف من الإبهام في أروع صوره وأدق معانيه.

ومنه ما جاء عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ(ﷺ) قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ)«**مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ**»[٣]

(١) مرقاة المفاتيح (٢٠٩/١) بتصرف .

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ٢٢٥).

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، أبو العلا محمد المباركفورى، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، كتاب/ النكاح ، باب/ ما جاء فى عن الذب عن المسلم ، حديث رقم (١٩٣١)، (٦، ٤٩).

والحديث الشريف ينفر من خلق ذميم نهى عنه القرآن وذم فاعله ، وهو الغيبة ، والذب معناه الدفاع ، فمن رد غيبة أخيه المسلم في غيابه حق له دخول الجنة ، وبعده عن الجحيم ، وقد عبر عن الغيبة بقوله:(لحم أخيه) وهى كناية للمبالغة في الوصف، ولتقريب المعنى في ذهن السامع ، والتنفير من قربها فهي كأكل لحم الإنسان ، والحديث يوجه بالابتعاد عن الغيبة لأنها من كبائر الإثم ، وهذا لا يكون لو ذكرت الغيبة بلفظها المباشر، ولم يقتصر الحديث الشريف وصف الغيبة بأكل اللحم بل جعلها كأكل لحم الأخ لزيادة المبالغة في التنفير، فجاءت الكناية وقد تولدت منها معانى ألصق بالمراد وأدت دورها بأبلغ ما يكون في التنفير من هذا الفعل الذميم والاشمئزاز منه ، وتأتى نهاية الحديث لتبين جزاء من أبعد نفسه عما يكون فيه قبحه ، فيقول (كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ) وهو جواب الشرط يرتبط بفعله وهو رد الغيبة فإذا تحققت؛ كان الفوز بالعتق من النار ، وهو وعد الله لا يخلف الله وعده.

وعلى هذا لاشك أن الأسلوب الكنائي يجعل المتلقي يتشوق لمعرفة مدلولات الألفاظ التى فيها الإبهام ، وبيان وظيفتها الأخلاقية من الستر للألفاظ التي تخدش الحياء ، ووظيفتها الدعوية في مواقف الترغيب والترهيب، كما تسهم في توجيه المتلقي واقناعه من خلال دعوته لمعرفة مضامين تلك الألفاظ .

المبحث السادس

البيان بالإبهام عن طريق المجاز

تظهر البلاغة النبوية من خلال التعبير عن المعاني بأسلوب التوجيه والنصح ولكن قد يأتي هذا النصح بطريق الإبهام ، ومنه الحديث عن الواحد بلفظ الجماعة باتخاذ صيغة الجمع والتعبير بها عن الواحد[١] وهنا يبرز الأدب النبوي من خلال عرض النصيحة والتحذير من الخطأ بعدم تعيين الشخص المخاطب والحديث عنه بلفظ الجمع ، وهنا يأتي الإبهام من خلال المجاز، عَنْ عَائِشَةَ (ﷺ)، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ؟ وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟» [٢] ، فهو لا يتعرّض في وعظه لأحد معيّن، بل يتكلّم خطابا عامّا لحصول الفائدة فيه لكل سامع، مع ما فيه من حصول التورية والستر عن الفاعل وتأليف القلوب [٣] ، وهذا من قبيل المجاز المرسل علاقته العموم : وهى كون الشيء شاملا لكثير مثل قول الله تعالى:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[٤] والمراد من الناس واحد، وهو «نعيم بن مسعود الاشجعي»[٥].

---

(١) عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته العموم أو العامية، ينظر: حاشية الإنبابي على الرسالة البيانية ص(٢١٨) ، ط١، مطبعة الأميرية ببولاق، مصر ١٣١٥هـ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب/ الأدب ، باب/ فِي حُسْنِ الْعِشْرَةِ ، حديث رقم (٤٧٨٨)، (٤/ ٢٥٠).

(٣) منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول(ﷺ) لعبد الله بن سعيد الحضرميّ الشحاري، المراوعي، دار المنهاج ،جدة، ط٣، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، (٢/ ٤٢٥).

(٤) سورة النساء: من آيه(٥٤).

(٥) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، لأحمد بن إبراهيم الهاشمي تحقيق د. يوسف الصميلي المكتبة العصرية، بيروت (٢٥٣/١).

ومنه ما رواه أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ** يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلاَتِهِمْ» فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ، حَتَّى قَالَ: « لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»[1]

والحديث الشريف يتضمن النهى عن رفع الرأس في الصلاة والأمر بخفضها، فيستهل الحديث الشريف بالاستفهام الإنكاري، **(مَا بَالُ؟)** وهى تعنى الحال أو الشأن ، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من تحريك للعقل وإثارة للذهن، لما يتطلبه من مشاركة المخاطب فى الوصول إلى الحقيقة المنهى عنها ، ومن ثم الاقتناع بمضمون الجملة الاستفهامية ، وهو نهى فحواه (لا ترفعوا رؤوسكم) ، وتظهر البلاغة النبوية ممزوجة بالتأدب واللياقة في الخطاب حيث خاطب(ﷺ) الواحد بلفظ الجماعة ، وهذا إبهام من خلال المجاز قصد منه الستر على الفاعل وعدم التشهير به طالما تحققت الفائدة دون الكشف عن شخصيته ؛ وذلك لكراهية بيان أنه المقصود من خلال تعيينه وتوبيخه ، وهذه من دلالات رحمته(ﷺ) كما أن فيه تحذيراً وحزماً لكل من فعل هذا الأمر والحث على البعد عنه ، ولم يأت الحديث بصيغة الأمر صراحة مثل (أمرتك ، أو أوجبت عليكم) ، وهذا من باب تهيئة نفسية السامع للأمر والاستجابة له عن طاعة وامتثال، وأدعى للقبول والانقياد ، فالحديث يجمع بين اللطف والرقة إلى جانب الحزم والشدة .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب/ الآذان ، بَابُ/ رَفْعِ البَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلاَةِ ، رقم الحديث(٧٥٠)،(١/ ١٥٠).

ومنه ما جاء عنْ عَائِشَةَ(ﷺ) قالت قال رسول الله(ﷺ): «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ** يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا، لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنِ اشْتَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ»[١]

وهذا الحديث نزل في عتق السيدة عائشة(ﷺ) لبريرة مَوْلاَةُ أُمِّ المُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ[٢]، واشتراط أحد قومها الولاء لهم فأبهم الفاعل من خلال المجاز والحديث بصفة عامة بلفظ (أقوام)، ولم يذكر رسول الله(ﷺ) الفاعل صراحة ويوجه إليه النهى ، والزجر، وإنما جاء التعبير عن الواحد بلفظ الجماعة فى (**مَا بَالُ أَقْوَامٍ**) للتعميم حتى تحصل الفائدة وعدم التشهير بالفاعل والستر عليه فينزجر ويرتدع أفضل من مواجهته ، واستجابة الجميع للأوامر والنواهي المطروحة فالهدف معرفة الخطأ والتنبيه عليه وبيان حكمه وإنكاره ، وليس الهدف معرفة المخطئ والتشهير به ، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الغرض .

وقد يأتي الإبهام عن طريق المجاز من خلال إسناد القول أو الفعل إلى الجمع والمراد الفرد المعين [٣] كما يقولون : بنو فلان قتلوا فلاناً ، وإنما القاتل رجل منهم ، وقد قيل ذلك ستراً وإخفاءً للقاتل ، وليبين عن أنهم كانوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب/ الصلاة ، بَابُ/ ذِكْرِ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ عَلَى المِنْبَرِ فِي المَسْجِدِ رقم الحديث(٤٥٦)، (١/ ٩٨).

(٢) سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين أبو عبد الله الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ،الناشر: مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥م(٢/٢٩٧).

(٣) عن طريق المجاز العقلي بإسناد الفعل إلى الجنس كله وهو في الحقيقة مسند إلى بعضه ، يراجع: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د/ محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبه ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ص(٥٣٥).

راضين بما فعل [١].

ومن الأحاديث التي جاءت على هذه الصورة ، ما راواه أبو شُرَيْحٍ الْكَعْبِيِّ[٢] (رضي الله عنه) قال قال رسول الله(ﷺ): « ثُمَّ أَنْتُمْ يَا خُزَاعَةُ! قَدْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْقَتِيلَ مِنْ هُذَيْلٍ، وَأَنَا وَاللَّهِ عَاقِلُهُ، مَنْ قَتَلَ بَعْدَهُ قَتِيلًا فَأَهْلُهُ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ: إِنْ أَحَبُّوا قَتَلُوا، وَإِنْ أَحَبُّوا أَخَذُوا الْعَقْلَ»[٣]، فخزاعة جميعها لم تقم بالقتل، وإنما القاتل واحداً منهم ، ولكن جاء الحديث الشريف يخاطب خزاعة كلها« ثُمَّ أَنْتُمْ يَا خُزَاعَةُ! قَدْ قَتَلْتُمْ هَذَا الْقَتِيلَ مِنْ هُذَيْلٍ» وأسند إليهم القتل ، وكأن كل واحد أمسك بسيفه واشترك في قتل المقتول ، وهذا من باب المجاز لقصد الإبهام ، فالمقام مقام لوم وعتاب ، وتكمن بلاغة الإبهام هنا في أنه بيَّن أن تواطؤ القبيلة مع القاتل وسكوتهم كأنهم يرضون بفعله ، كان السبب في إسناد القتل لهم جميعاً ، وإطلاق لفظ الجمع وهى خزاعة ، والمراد واحد وهو القاتل، ويكون أيضاً من باب ستر القاتل وعدم فضحه فيعبر بالجمع حينئذ ليكون المقصود المعنىُّ مغموراً مبهماً فيه مستوراً أمره[٤].

---

(١) الكشاف(٣/ ٣١) .

(٢) شُرَيْحٍ الْكَعْبِيِّ هو: خويلد بْن عَمْرو بْن زمان بْن عدي بْن عَمْرو بْن ربيعة، أسلم قبل فتح مكّة ، وكان يحمل أحد ألوية بني كعب من خزاعة الثلاثة يوم فتح مكّة ، ومات أبو شُرَيْح بالمدينة عام ٦٨هـ، يراجع: الطبقات الكبرى ، لأبي عبد الله محمد بن سعد البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م، (٤/٢٢١).

(٣) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب/ الديات ، باب/ ولى العمد يرضي بالدية ، حديث رقم (٤٥٠٤) (٤ / ١٧٢) .

(٤) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د / محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين الإسلامية ، ط١، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م ص(١٢٠).

المبحث السابع

بلاغة البيان بالإبهام عن طريق التشبيه الوهمي

والتشبيه لون بياني يخرج الخفي إلى جلى ، ويقرب الصورة البعيدة ففيه روعة وجمال ويزيد المعنى شرفاً ووضوحا ، ومنه العقلي الذى يدرك بالعقل، والأصل أن يشبه المعقول بالمحسوس لتقريب الصورة ؛ لأن الأصل أن يكون المشبه به أظهر وأوضح ، ولكن قد يأتي مخالفاً للأصل لأن القصد إبهام المشبه به وجعله غير محدد ومعلوم سواء في التعبير عن معانى التنفير أو الترغيب ، وخاصة إذا كان وهمياً وهو الذى لا وجود لأجزائه كلها أو بعضها في الواقع حتى ولو وجد لكان مدركا بالحواس ومما جاء من باب الترغيب قول الله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1] .

وقد ورد فى الحديث الشريف هذا النوع من التشبيه والسر البلاغي وراء هذه التشبيهات يكمن في إبهامها ، إذ الإبهام هو عين البيان فيها ؛ لأنه يدع للعقل فرصة في أن يرسم الصورة التي تتراءى له في أنها أقبح الصور في تخيله ، والتي يمكن أن يكون عليها الشيطان ، ولو حددت له الصورة أولاً ما كانت لتدع في النفس التأثير الذي فعلته تلك التشبيهات.

ومنه ما رواه جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) رَأَى امْرَأَةً، فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ، وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيئَةً لَهَا، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ **فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ**، وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ»[2]

---

(١) سورة يوسف: جزء من الآية(٣١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب/ الحج ، بَابُ/نَدْبِ مَنْ رَأَى امْرَأَةً فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ ، رقم الحديث

(١٤٠٣)، (٢/ ١٠٢١).

يأتي الحديث الشريف ليحذر المؤمن من الوقوع في المهالك والمعاصي والتي منها النظر إلى ما حرم الله عز وجل ، ويدعوه إلى غض البصر، كما فيه تحذير للمرأة من عصيان الله تعالى وعدم التزام الستر والحشمة عند الخروج من بيتها، ويرغبها في الستر وعدم الخروج إلا للحاجة وفى ستر واحتشام ، فنرى الرسول الكريم قد صور المرأة التي تظهر مفاتنها عند خروجها فتثير الرجل وتشعل نيران الغريزة بداخله بصورة شيطان ، وهو من الصور القبيحة والمذمومة لدي الإنسان رغم أننا لم نره على حقيقته، ولكن الإبهام في هذا التشبيه ترك للعقل فرصة أن يرسم الصورة على أنها أقبح الصور في تخيله ، ولو كانت صورة الشيطان معلومة للسامع ما كان لها هذا الوقع في النفس من التنفير والقبح، فجاء النبي بهذا التشبيه المفرد للتنفير من صورة جسد المرأة الفاتن المثير لحظة نظر الرجل إليه بدون وجه حق، فيفتن ويشتهيه فيرمى به في المهالك ، فاستهل الحديث الشريف بأسلوب التأكيد (إن) ليقرر في ذهن السامع مزيداً من التأكيد على تطابق جسد المرأة مع الشيطان في الإغواء ، فتكون حقيقة مقررة لا يمكن إغفالها أبداً ، وجعل صورة الشيطان ظرفاً لإقبال المرأة وإدبارها مبالغة على سبيل التجريد ورؤيتها في جميع جهاتها مدعاة للفساد والضلال أكثر ، والبلاغة النبوية تظهر في تقديمه(ﷺ) صورة إقبالها لما فيها من المواجهة واستراق النظر الذى هو بداية الفتنة ، وتأتى الأفعال المضارعة (تُقْبِلُ، وَتُدْبِرُ) لتزيد التشبيه حركة وتجدداً وصورتها الشيطانية التي خرجت عليها دون مراعاة أمر الله تعالى مستمرة ومتجددة في قبحها ، وهذه مبالغة في الذم بالإضافة إلى التكرار لجملة(فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ) مع الإقبال والإدبار فالصورة القبيحة ملازمة لها لا تنفك عنها ، وأكد هذا المعنى حذف أداة التشبيه للمبالغة والتأكيد في الذم فكأن أثر جسدها من الفتنة والغواية على الرجل هو الشيطان نفسه ، وهذا فيه إشارة إلى أن هذا الجسد وما يظهر فيه من حسن

أخَّاذ يُخفى ورائه الكثير من القبح والشر فهي لا تعدو أن تكون صورة شيطان يرمى في المهالك ، كما أن القبح ليس في الصورة فقط وإنما امتدت إلى الباطن وهو ما يقوم به الشيطان في دعائه للإنسان ووسوسته له بالشر وتزين المعاصي له ، ويقول النووي فى شرح الحديث (قال العلماء معناه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلق بهن فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له)[1]، ومن خلال هذا البيان النبوي يظهر الترهيب والتحذير من هذا النظر المحرم الذى تكون عواقبه وخيمة ، ويدعو السامع إلى اجتناب المعاصي والالتزام بأوامر الله عز وجل.

ومنه قوله(ﷺ)«**إِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانَةٍ، لَقِيَتْ شَيْطَانًا** فِي السِّكَّةِ فَقَضَى مِنْهَا حَاجَتَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»[2] ، وهذا جزء من حديث يضع فيه الرسول الكريم أساساً من أسس الحياة الزوجية وهو الحفاظ على ما يدور بين الرجل وزوجته من علاقة ، وعدم التحدث في مثل هذه الأمور ، لأنه كشف لستر الزوجين، وللتنفير من هذا الفعل الذميم جاء الرسول واصفاً كلا الزوجين اللذين يكشف كلا منهما ستر الآخر بدافع التسلية والمزاح بالشيطان في قباحته وضلاله ، ويأتي القصر بـ(إنما) للتأكيد على هذا ، وجاء التشبيه بالشيطان لكلا الزوجين تشبيهاً وهمياً فيه إبهام على السامع حيث إن الصورة المشبه بها غير مدركة لديه ولكنها معهودة بالقبح والغواية

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، لأبى زكريا النووى، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٢ ١٣٩٢م،(٩/ ١٧٨)

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب/ النكاح ، بَابُ/مَا يُكْرَهُ مِنْ ذِكْرِ الرَّجُلِ مَا يَكُونُ مِنْ إِصَابَتِهِ أَهْلَهُ، رقم الحديث(٢١٧٤)،(٢/ ٢٥٢).

، فجاء التشبيه غاية البيان للتنفير من فعلهم وقبحهم في الهيئة والفعل ، فشكلهم قبيح كالشيطان ، وفعلهم أقبح في الضلال والهلاك، ونرى لفظ (شَيْطَانَةٍ، شَيْطَانًا) نكرة للتحقير منهما والحط من شأنهما ، كما التنوين قام بدوره الصوتي في التأكيد على هذا المعنى ، وقوله:(لَقِيَتْ) فيه دلالة على أن كلا من الشيطان والشيطانة ليس بينهما معرفة وكأن هذا الشيطان فعل هذا الفعل الذميم مع شيطانة لا يعرفها ، ولكن جمعهما القبح في الفعل وهو تحدث كل منهما فيما لا يجوز، وعلى هذا يكون تحدث كلا الزوجين وكشفه لستر الآخر فيه خروج عن مقتضي الارتباط برباط الزوجية الذى وضعه الاسلام ، ولم يكتف الرسول الأمين بهذا التشبيه للتنفير وبيان قبح هذا الفعل، ولكن جاء بالجملة الحالية(وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ) لتزيد الموقف نفرة وقباحة وكأن حديث الزوج والزوجة عما يدور بينهما فعلا حقيقيا مشاهداً للناس ، وبذلك يكون ليس هناك حياء ولا ستر وكشف ما يجب ستره لكل منهما لجميع الناس ، بالإضافة إلى قيامهم بالغواية والضلال وشيوع الفاحشة ، وبذلك كان التشبيه الوهمي هو أبلغ ما يكون في التعبير عن المعنى المراد.

وقد يأتي التشبيه برأس الشيطان لبيان قبح طلع الشجر والتنفير من شكله، ومنه ما روى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عندما سُحِرَ النَّبِيُّ (ﷺ)، قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ « **نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**»[1]

يحكى الحديث الشريف قصة سحر النبي (ﷺ) حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله ، وأخبره ربه عن طريق ملكين أنه مسحور ومكان السحر، وقد ذهب لاستخراج السحر، وعندما عاد وصف مكان السحر وهو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب/ بدء الخلق، بَابُ/ صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ رقم الحديث(٣٢٦٨)، (٤/ ١٢٢).

بِئْرِ ذَرْوَانَ كان في بستان بنى زريق بأن طلع نخله كرؤوس الشَّيَاطِينِ ، وقد أراد بالنخل طلعه ، وقد أضيف للبئر ؛ لأنه كان مدفوناً فيها ، وهنا قد شبه الرسول طلع نخل هذا البئر بأنه يشبه رؤوس الشياطين ، وهذا التشبيه فيه شيء من الإبهام لأن رأس الشيطان أمر غير مشاهد وهو المشبه به، ولكنها معهودة بقبحها للعقل ، والأصل أن تكون الصفة فيه أظهر وأوضح ولكن جاء على غير هذا لبيان التناهي في كراهتها ووحشية المنظر واستقباح الصورة ، والتنفير من شكلها وكانت العرب تعد صورة الشيطان أقبح المناظر ، واستخدم كأن للتأكيد على هذه القباحة، وكأنها رأس الشيطان نفسها ، والحديث الشريف فيه اقتباس من الآية القرآنية ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1].

ومنه ماروا‌ه عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ رسول الله(ﷺ): بِيَدِهِ أَنِ اخْرُجْ – كَأَنَّهُ يَعْنِي إِصْلَاحَ شَعَرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ – فَفَعَلَ الرَّجُلُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ **رسول الله(ﷺ):** «أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ **ثَائِرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ**»[2]

يحث النبي الأمين في هذا الحديث على ضرورة التنظف وترجيل الشعر واللحية للرجال وتعهده بالإكرام والتهذيب وصيانته من الشعث والتراب؛ لأن هذا من الإسلام وعدم تعهد الرجل لنظافة شعره وتهذيبه يؤدى إلى تشعثه وقبح منظره ، وقد جاء الاستفهام التقريري في (أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا؟) لإثارة انتباه السامعين وحثهم على التفكر والوصول إلى الأفضل ، ويأتي

(١) سورة الصافات: الآية رقم (٦٥).

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ ، كتاب/ الشعر، بَابُ/ إصلاح الشعر رقم الحديث(١٧٣٦).

التعبير بـ(ثَائِرَ الرَّأْسِ) كناية عن قبح المنظر وعدم الانتظام والتسوية ، وعبر بالرأس ولم يعبر بالشعر عن طريق المجاز المرسل لعلاقة المحلية فذكر الرأس وأراد الشعر لبيان أن الرأس كلها شعرها غير متساو وذلك لزيادة القبح ، فشبه الرسول الأمين الرجل الذى لا يتعهد إكرام شعره ولحيته بالشيطان في قباحة الشكل مع أنه غير مرئ للسامع ، ولكنه من باب التنفير ، والحض على البعد عن هذه الصورة القبيحة، واستخدام (كَأَنَّهُ) لبيان المبالغة والتأكيد على أن هذا الرجل في قبح منظره فكأنه الشيطان نفسه لا يختلف عنه في شيء ، حيث تستخدم (كأن) حين يقوى الشبه بين الطرفين ، فتولد من التشبيه بالشيطان بيان وتوضيح لمعاني القبح والنفرة .

وكما أن التشبيه بالشيطان جاء للتنفير من الفعل يأتي التشبيه بالملائكة للحث على الفعل والحض عليه والترغيب فيه ؛ لأنها من الصورة المعهودة لدى البشر بالحسن والجمال ، والتشبيه بها قد يكون ظاهره الإبهام ، ولكنه يفصح عن المعاني المرادة من الترغيب والحث على الفعل ، ومن ذلك قوله: عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمْسٍ؟ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ» قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَآنَا حَلَقًا فَقَالَ: «مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ» قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ **كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ** رَبِّهَا؟» فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[1]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب/ الصلاة، بَابُ/ الأمر بالسكون في الصلاة ، رقم الحديث(٤٣٠)، (١/ ٣٢٢).

فالحديث يدعو المسلمين لتسوية الصفوف حتى تكون صلاتهم مكتملة ، فينالوا الدرجات العلى ، ويكون الامتثال أمام ربهم في أجمل صورة ، فجاء التحضيض الذى يتضمن الحث والترغيب في الفعل من خلال (ألا) وقد دخلت على المضارع (تصافون) وقد أفاد الاستقبال ، وفيه معنى الطلب ، فأفاد التأكيد على الحث والحض على الفعل ، ولتقوية الرغبة لديهم جاء التشبيه بالملائكة في قوله: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فهي معهودة لديهم بالحسن ، فكان هذا الحض العظيم له أثر في نفوسهم وحبهم لامتثال الأمر، ومن الدليل على ذلك أن نفوسهم قد اشتاقت ليكونوا كذلك ، فسألوا عن صف الملائكة عند ربهم (وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟) فجاء التشبيه بالملائكة وهى أجسام لا ترى بالعين ولكنها معهودة للعقل بالحسن ، فأدى التشبيه دوره في الترغيب والحث على التمثل بهم .

والسر البلاغي لهذه التشبيهات يكمن في إبهامها حيث أعطى العقل فرصة لتخيل هذه الصور والتي تكون قبيحة عند التشبيه بالشيطان ، وتكون غاية في الحسن والجمال عند التشبيه بالملائكة ، وكل من الملائكة والشيطان تشبيه مركوز في الطبع غير معلوم بالعقل والإدراك ، وما فيه من إبهام هو سر خلابته وحسنه وطرافته ولذا قيل : لكل جديد لذة [1].

(١) بحوث في الدلالة والتشبيه، د/ محمود فرج العقدة، ص(٢٦) ، دار الطباعة المحمدية ، ط١، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

الخاتمة

الحمد الذى أتم علينا نعمه ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله خير من نطق بالضاد، وعلى آله وأصحابه الأطهار .

وبعد.....

تلك الدراسة كانت محاولة للكشف عن البيان من خلال الإبهام غير المتبوع بتفسير يوضحه في بعض من أحاديث رسول الله(ﷺ)، وكيف كان هذا الإبهام أفضل من التصريح ، وغاية البيان في الكشف عن المعاني المرادة.

وكان من ضمن النتائج التى توصلت إليها الباحثة:

١-لم يكن الإبهام وطرقه المتعددة في السنة النبوية ضرباً من الإيهام أو التعمية أو الترميز، وإنما كان عين البيان عن المعاني المرادة وتقرير للأحكام الشرعية، ومن خلاله كان الخطاب عاماً لكل المسلمين حتى وإن خوطب به الواحد.

٢- جاء الإبهام في السنة النبوية غاية البلاغة حيث كان أوفى بالمعنى من التصريح ، وذهب السامع في إبهامه كل مذهب، ودفعه للتفكر والتدبر، وإدمان النظر والتمعن.

٣- لكل صورة من صور الإبهام البلاغي مذاقها الخاص وبلاغتها التي تحمل في ثناياها ما لا يحمله التصريح والبيان.

٤- قام الإبهام بوظيفة معنوية بجانب الوظيفة اللفظية فكانت من وظائفه الستر ومراعاة الحالة النفسية للمخاطب وعدم التشهير به في مواقف العتاب واللوم.

٥- جاء الإبهام بالتنكير في الحديث النبوي لإظهار معاني متعددة منها التعظيم ، والتهويل والتحقير والتقليل ، والعموم، وكان غاية الإصابة وعين البيان حيث بعث في النفس تأثيراً متصاعداً تفاعل من خلاله

السامع مع المتكلم ، فأوقع في نفسه المعنى موقع القبول.

٦- أحدث الإبهَامُ بالاسم الموصول في الحديث الشريف تشَوُّفاً وتَشَوُّقاً في نَفْسِ السامع من خلال إبهام جملة الصلة والتي تذهب النفس فيها كل مذهب.

٧- جاء البيان بالإبهام عن طريق الحذف في صور متعددة من خلال حذف المسند إليه ، وحذف جواب الشرط وحذف التمييز ، وكان بمثابة وسيلة تحفيزية تشويقية للمتلقي لمعرفة المحذوف في كل صورة من هذه الصور.

٨- كان اتفاق فعلى الشرط والجواب من طرق البيان بالإبهام، وقد يوحى ظاهرياً بتشابه المعنى، وهو حقيقة يفيد معنى متغايراً، منها المبالغة إما في التعظيم وإما في التحقير.

٩- قامت الكناية بدور فاعل باعتبارها إحدى طرق الإبهام في الحديث الشريف من خلال التعبير عن الأحكام الشرعية في ثوب من العفة والتهذيب في المواقف التي تتطلب الحياء ، فزاد اللفظ جمالاً ، حيث عبر عن كل ما يخص المرأة ، والجماع ، وقضاء الحاجة ، وكل ما يلزم ستره، فكان ذا وظيفة خلقية وإصلاحية ، ورسخ أن الحاجة إلى ستر اللفظ كالحاجة إلى ستر فعله ، ومن بلاغتها مراعاة الحالة النفسية للمخاطب.

١٠- أظهر الإبهام عن طريق المجاز الأدب النبوي في أروع صورة ، وأبان المعنى في ثوب من النصح واللين من خلال عرض النصيحة والتحذير من الخطأ بعدم تعيين الشخص المخاطب والحديث عنه بلفظ الجمع.

١١-قام التشبيه الوهمي في الحديث الشريف بدوره في التنفير من الفعل ، وبيان شدة قبحه أو الحث والترغيب فيه من خلال من خلال التشبيه بالشيطان والملائكة.

١٢-يعد الإبهام البلاغي هو أحد طاقات الحديث الشريف وسر من أسرار بلاغته.

وختاماً فهذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثى ، والله أسأل أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على جانب ولو يسير من بلاغته(ﷺ)، كما أسأله – جل شأنه – أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر والمراجع

١- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د / محمد الأمين الخضري، مطبعة الحسين الإسلامية ، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٢- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لجمال الدين عبد الله بن هشام الأنصاري، راجعة: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار المعرفة، بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٣- الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز " دراسة بلاغية " د/ مختار عطية، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧م.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي ، ط٢، دار الجيل ، بيروت.

٥- بحوث في الدلالة والتشبيه، د/ محمود فرج العقدة، دار الطباعة المحمدية، ط١، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٦- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لكمال الدين عبدالواحد الزملكانى الأنصاري (ت ٦٥١هـ)، تحقيق، د/ أحمد مطلوب ، د/ خديجة الحديثى، مطبعة العاني ، بغداد ، ط١-١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٧- البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي ، دار القلم ، دمشق، الدار الشامية، بيروت ، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٨- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د/ محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبه ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٩- البيان بالإبهام غير المتبوع بالتفسير طرقه وبلاغته ، بحث اعداد/ الدكتور لطفي خالد الجوهري ، تم نشره في حولية كلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ، المجلد الثانى من العدد الثلاثون ،٢٠١٤م.

١٠- تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي الناشر: دار الكتاب العربي.

١١- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن ، كمال الدين عبدالواحد، الزملكانى الأنصارى، تحقيق أحمد مطلوب ، وخديجة الحديثى، مطبعة العانى ، بغداد، ط١ ١٩٦٤م.

١٢- التحرير والتنوير، الأستاذ الشيخ / محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٣- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي للإمام الحافظ / أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، خرج أحاديثه / عصام الصبابطي ، دار الحديث ، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

١٤- التشويق في الحديث النبوي طرقة وأغراضه ، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ، مطبعة الحسين الإسلامية ، ط١، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

١٥- الجامع الصحيح ، سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة المصطفى البابى الحلبي وأولاده ، ط٢ - ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

١٦- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، لأحمد بن إبراهيم الهاشمي تحقيق د. يوسف الصميلي المكتبة العصرية، بيروت.

١٧- حاشية الإنبابي على الرسالة البيانية ، ط١، مطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٣١٥هـ.

١٨- الحيوان ، لعمرو بن بحر ، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٢، ١٤٢٤ هـ.

١٩- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي،

تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٠- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة، ط٤.

٢١- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، ت/محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٢- سنن أبي داود للإمام الحافظ أبي داود سليمان الأزدي ، تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت.

٢٣- سنن الدار قطنى للحسن علي بن عمر البغدادي (المتوفى: ٣٨٥هـ)، تحقيق: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم ، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان ، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م .

٢٤- سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين أبو عبد الله الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ،الناشر: مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

٢٥- شرح الطيبى على مشكاة المصابيح المسمى(الكاشف عن حقائق السنن) للإمام / شرف الدين بن محمد الطيبى، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

٢٦- شرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض ، ط ١٤٢٦ هـ .

٢٧- صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، تحقيق/محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٨- صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٢٩- الصناعتين لأبى هلال الحسن العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العنصرية – بيروت- ١٤١٩ هـ.
٣٠- الطبقات الكبرى ، لأبي عبد الله محمد بن سعد البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.
٣١- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوي اليمني ، دار الكتب العلمية – بيروت.
٣٢- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد في إعراب الحديث ، لجلال الدين السيوطي، ت/ حسن موسى الشاعر، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
٣٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لأبى محمد بدر الدين العينى، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد . الناشر: دار الجيل ، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري لزين الدين عبد الرحمن ، السَلامي، الدمشقي، الحنبلي، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة النبوية. ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وغيره.
٣٦- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، لزين الدين محمد الحدادي

المناوي القاهري ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط١/ ١٣٥٦م.
٣٧- قضايا النقد الأدبي ، د/ بدوي طبانة، معهد البحوث والدراسات العليا بجامعة الدول العربية ،المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧١م.
٣٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣ – ١٤٠٧ هـ.
٣٩- كشف المحن فى علامات الساعة والملاحم والفتن، محمود رجب حمادي الوليد، مكتبة عباد الرحمن ، ط ١، بيروت ، لبنان، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٤٠- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ، دار صادر – بيروت، ط٣ – ١٤١٤هـ.
٤١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير ، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.
٤٢- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي بن(سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
٤٣- المقتضب لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، أبو العباس، المعروف بالمبرد ، ت/: محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت.
٤٤- منار القارى شرح مختصر صحيح البخاري ، لحمزة محمد قاسم، تحقيق/ الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار البيان، دمشق – سوريا، مكتبة المؤيد، الطائف، المملكة العربية السعودية ، عام النشر: ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م.

٤٥- منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول(ﷺ) لعبد الله بن سعيد الحضرميّ الشحاري، المراوعي، دار المنهاج – جدة، ط٣، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

٤٦- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، لأبى زكريا النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط٢ -١٣٩٢م.

٤٧- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، ط١٥.

٤٨- همع الهوامع شرح جمع الجوامع لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق د، عبد الحميد هنداوي، المكتبة الوقفية .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	**ملخص البحث باللغة العربية**	٣٦٥
٢	**ملخص البحث باللغة الإنجليزية**	٣٦٦
٣	**المقدمة**	٣٦٧
٤	**التمهيد**	٣٧١
٥	**المبحث الأول:** البيان بالإبهام عن طريق التنكير.	٣٧٩
٦	**المبحث الثاني:** البيان بالإبهام عن طريق الموصولية.	٣٩٣
٧	**المبحث الثالث:** البيان بالإبهام عن طريق الحذف.	٤٠١
٨	**المبحث الرابع:** البيان بالإبهام عن طريق اتحاد طرفي الجملة الشرطية.	٤١٢
٩	**المبحث الخامس:** البيان بالإبهام عن طريق الكناية.	٤١٧
١٠	**المبحث السادس:** البيان بالإبهام عن طريق المجاز.	٤٢٦
١١	**المبحث السابع:**البيان بالإبهام عن طريق التشبيه الوهمي	٤٣٠
١٢	**الخاتمة**	٤٣٧
١٣	**ثبت المصادر والمراجع**	٤٤٠
١٤	**فهرس الموضوعات**	٤٤٦